الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العقيد أحمد دراية أدرار

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

التعليمية عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه: "أليس الصبح بقريب"

التعليم العربي الإسلامي: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي.

تخصص: تعليمية اللغة العربية.

إعداد الطالبين:

- نور الدين كوني
- إدريس واعلي

إشراف الدكتور:

- سليمان قوراري

الموسم الجامعي:1438/1437هـ-2017/2016م

إهداء

إلى من نزل في حقهما قوله تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحمَة وَقُل ربيِّ ارْحمْهُماَ كَمَا ربيَّاني صَغيراً)

إلى من أرضعتني الحنان إلى بسمة حياتي وسر وجودي إلى من كان دعائها سر نجاحي إلى التي غمرتني بحنانها و زرعت في قلبي العطف و الحنان إلى نور الحياة وبهجته إلى التي عجز لساني عن وصف مآثرها ، أمي حبيبتي الغالية.

إلى من جرع الكأس فارغا ليسقني قطرة حب إلى من حصد الأشواك عن دربي لينير لي طريق الحياة إلى الذي يسعد بسعادتي و يحزن بحزني رمز الأبوة إلى ذلك المقام الراسخ في ذهني و أفكاري أبي العزيز.

إلى الذين تقاسمت معهم حنان الأم وأتعاب الأب "إخوتي:توفيق-أم الخير-منيرة خولة.

إلى جدتاي اللتان لم تبخلا علي بالدعاء حفظهما الله ورعاهما

إلى كل أعمامي وعماتي وأبنائهم وأخوالي وخالاتي وأبناؤهم وإلى كل عائلة واعلي صغيراً وكبيراً

إلى من أشرف علينا في إنجاز هذا العمل الدكتور: قوراري سليمان.

إلى من تقاسم معي أتعاب هذا العمل صديقي:كوني نور الدين.

إلى كل أصدقائي وأحبائي كل واحد باسمه.

إلى كل من العائلات:سحلاوي.جبوري.الغالي.بوشنتوف.كياش.عزام.رزوقي.عبدالغفار.حاج علي.بيادر.زواوي.شرقي.حمادي.ورحماني.

إلى كل من مد لنا يد العون من اساتذة وكل طلبة جامعة ادرار.إلى كل من حواهم قلبي ولم تسعهم مذكرتي....أهدي هذا العمل.

إدريس

إهداء

الحمد لله الذي رزقني روح العلم وألهمني القدرة على مواصلة مشواري الدراسي، أهدي هذا العمل المتواضع إلى من نزل في حقهما قوله تعالى، ﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾

إلى من أخرجتني إلى هذه الدنيا وتحملت عناء تربيتي، وغمرتني بحبها وعطفها وحنانها الفياض وكان لها الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في وصولي إلى هذه المرتبة العلمية، إلى رمز الأمومة الصادقة أمي الغالية حفظها الله تعالى.

إلى من علمني التضحية والإخلاص والصبر على الشدائد والنوائب، وحب العمل، إلى رمز الأبوة الصادقة، أبي حفظه الله تعالى وأدامه تاجا فوق رؤوسنا.

الى أفراد عائلتي من إخوة وأخوات، كل باسمه: زينب، عمر، مصطفى، حمزة، أسماء، بلال، زكرياء، عبد الغني. حفظهم الله تعالى وسدد خطاهم.

إلى جدتي العزيزة حفظها الله تعالى وأطال في عمرها.

إلى من خاضوا معي غمار الدراسة وتحملوا أتعابها، زملائي الأعزاء. وإلى أصدقاء السراء والضراء، إلى إخواني وكل من شارك معي في إنجاز هذا العمل، لهم مني كل الشكر والتقدير.

وإلى أساتذتي الأكارم الأفاضل أدامهم الله زخراً للعلم وتاجاً له، لهم مني كل التقدير والاحترام والشكر والعرفان.

نورالدين

شكر وعرفان

يقول الله تعالى:﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ ومصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:"من لم يشكر الناس لم يشكر الله".

فإننا في هذه اللحظة وقد وفقنا الله تعالى إلى إنجاز هذا العمل ندعوه جلّ وعلا أن يحفظ لنا والدينا الذين علمونا وسهروا من أجلنا .

وإذا كان من يستحق الشكر والجزاء فهو الأستاذ الدكتور سليمان قوراري الذي كان لنا سنداً وعوناً من خلال إشرافه وتوجيهه لنا، فنسأل الله تعالى أن يجزيه عنا أحسن الجزاء.

والشكر موصول كذلك إلى كل الأساتذة الكرام وإلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل.

إدريس ...نور الدين

التعليمية عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه "أليس الصبح بقريب"

مقدمـــة

مقدمة:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه، يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد أصبح مصطلح التعليمية يحظى بمكانة بارزة في مجال التربية والتعليم، وغدا يحتل حيزاً كبيراً من اهتمام علماء التربية والقائمين على حقول التعليم، والناظر إلى مفاهيم التعليمية عبر مراحل تطورها التاريخي بعين فاحصة ممحصة، سيجد أنها قد شهدت تحولا متسارعاً، وذلك نتيجة للتطور التقني والتكنولوجي الهائل الذي عرفه العالم في العقود الأخيرة من القرن العشرين في شتى الحقول والمجالات، وخاصة في مجال التربية والتعليم، وهذا ما نتج عنه بحوث مكثفة ومعمقة في مجال التعليمية، فبعد أن كانت تلك البحوث ترتكز على النشاط التعليمي فقط، أصبحت تبحث في التفاعل الموجود بين عمليتي التعليم والتعلم، أي بين المعلم والمتعلم، وأصبحت تبحث في الفعل التعليمي وارتباطه بالمحتويات وما تعلق بها من مفاهيم. وبهذا أضحت التعليمية اليوم علما قائما بذاته له أصوله وقواعده.

ومفهوم التعليمية في حقيقته من المفاهيم الأصيلة، فالبحث في قواعد النشاط التعليمي وأساليب التدريس كان معروفا عند كثير من العلماء القدامى والمحدثين، وخاصة عند المهتمين منهم بالتعليم ممن كتبوا في فنون التدريس وتلقين الصبيان، أو كانت لهم أساساً مؤلفات ذات مضمون تعليمي، كالخليل الفراهيدي في كتابه "العروض"، وعبد القاهر الجرجاني في كتابه"أسرار البلاغة"، وابن مالك في"ألفيته"، وعبد الرحمان الأخضري في نظمه"الجوهر المكنون في ثلاثة فنون(البلاغة والنحو والصرف)، والإمام سحنون المالكي صاحب"الفقه المالكي"، وغيرهم كثير.

وكان من أبرز العلماء المحدثين الذين اهتموا بالتعليم: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أحد كبار العلماء التونسيين الزيتونيين، ومن رواد الإصلاح في الفكر العربي والإسلامي الحديث، فقد كانت له اجتهادات كثيرة في مجال التعليم عامة، وإصلاح النظام التعليمي بصفة خاصة، وهو الذي ارتبط اسمه كثيراً بإصلاح التعليم بجامع الزيتونة؛ وفي هذا السياق ألف الشيخ بن عاشور كتاباً موضوعه إصلاح التعليم العربي بصفة عامة والتعليم الزيتوني بصفة خاصة وهو:"أليس الصبح بقريب"(التعليم العربي الإسلامي:دراسة تاريخية وآراء إصلاحية)، حيث عرض فيه آراءه الإصلاحية التي تهدف أساسا إلى تحسين النشاط التعليمي بجامع الزيتونة، وتطرق فيه للحديث عن الضوابط والأركان الثابتة في عملية التعليم، كما أشار الشيخ بن عاشور في كتابه كذلك إلى أساليب التدريس الناجحة الفعالة، والتي سعى من خلالها إلى تحسين الأداء التعليمي في جامع الزيتونة.

وضمن الشيخ كتابه هذا بجملة من الأبواب والفصول، أهمها: أطوار التعليم العربي الإسلامي ومناهجه؛ أسباب تأخر التعليم؛ أسباب تأخر العلوم؛ التآليف؛ حال التعليم الزيتوني؛ المعلمون؛ إصلاح التعليم؛ وجوه من الإصلاح. وأُلحق بالكتاب في نهايته تذييل للنهوض بالإصلاح.

وعلى هذا الأساس ولأن كتاب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تعليمي ذو طابع إصلاحي، أردنا دراسة هذا الكتاب من حيث مضمونه التعليمي، وهذا من أجل كشف الغطاء عن الجوانب التعليمية أو الديداكتيكية عند الشيخ بن عاشور، فكان بحثنا هذا موسوماً بعنوان: **التعليمية عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه:"أليس الصبح بقريب" (التعليم العربي الإسلامي: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية**. ويعود اختيارنا لهذا الموضوع إلى سببين رئيسين هما:

-أهمية المناهج التعليمية الحديثة، التي صارت تحتل حيزاً معتبراً في الحقل التعليمي التربوي. فأردنا أن نكون من السباقين إلى دراسة السمات التعليمية(الديداكتيكية) عند الشيخ الطاهر بن عاشور من خلال كتابه"أليس الصبح بقريب".

-أهمية الكتاب وما يطرحه من أفكار وآراء قيّمة من شأنها أن تسهم في تطوير تعليمنا العربي،

وكان هدفنا من هذه الدراسة هو: التعريف بالكتاب والكشف عن خبايا مضمونه، والبحث في ملامح التعليمية (الديداكتيك) عند الشيخ بن عاشور من خلال ما جاء به في كتابه مما له علاقة بالنشاط التعليمي وما أشار إليه من فنون التدريس، ثم التعريج على تاريخ التعليم الزيتوني وأشكال التدريس التي كانت قائمة في جامع الزيتونة قبل أن تجرفه المخططات التدميرية التي قزمت من عطائه.

أما أهمية الموضوع فهي تكمن في أهمية الكتاب ذاته من حيث إن كثيرا من الرؤى والأفكار التي طرحها ابن عاشور في كتابه ما تزال قيمتها العلمية ثابتة، فهي صالحة للتجسيد والتطبيق، على الرغم من أن فصولا عديدة من هذا الكتاب قد أصبحت جزءاً من التاريخ، وتكمن أهمية الكتاب كذلك في أنه دعوة صريحة للقيام والنهوض بتعليمنا العربي حتى نصل به إلى درجات الرقي والحضارة.

وبالنسبة للدراسات السابقة لهذا الموضوع فعلى حسب اطلاعنا لم نجد موضوعات كثيرة قد اختصت بدراسة السمات التعليمية أو الديداكتيكية في كتاب "أليس الصبح بقريب"، وذلك لما يغلب على الموضوع من طابع الطرح الجديد. والحمد لله لم نواجه أي عقبات أو صعوبات في سبيل إنجازنا لهذا العمل. وقد اتبعنا في بحثنا منهجا تاريخياً تحليلياً بُغية الوصول به إلى أنسب شكلٍ وأكمل وجه.

ويطرح موضوعنا هذا إشكالية رئيسية سنحاول بتوفيق الله الإجابة عنها، وهي: أين تتجلى معالم التعليمية(الديداكتيك) عند بن عاشور فيما عرضه من مضمون كتابه؟ ويندرج تحت هذه الإشكالية عدة تساؤلات أهمها:

-كيف كان التعليم في جامع الزيتونة؟ وما هي أطوار الإصلاح التي مر بها؟

-ما هي أهم آراء الشيخ بن عاشور الإصلاحية التي سطرها في كتابه"أليس الصبح بقريب"؟ وما دواعي تطبيقها والأخذ بها؟

وللوصول إلى إجابة كافية شافية عن كل هذه التساؤلات سطرنا خطة بحث على النحو التالي:

-مقدمة،

مدخل: نورد فيه ترجمة موجزة لشخصية الشيخ الطاهر بن عاشور

الفصل الأول: التعليم بجامع الزيتونة قبل الشيخ ابن عاشور وأيامه. ونتطرق فيه لأطوار التعليم الزيتوني قبل ميلاد الطاهر بن عاشور وعلى عهده.

الفصل الثاني: إصلاح التعليم العربي الزيتوني. ونشير فيه إلى حركات الإصلاح التي شهدها التعليم بجامع الزيتونة، وأهم رواد الإصلاح الذين برزوا قبل الشيخ ابن عاشور وفي أيامه.

الفصل الثالث: التعليمية في كتاب "أليس الصبح يقريب". ونتحدث فيه عن أهم الموضوعات التي أشار إليها الشيخ ابن عاشور في كتابه مما له علاقة بمجال التعليمية أو الديداكتيك.

-خاتمة: نعرض فيها أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نتوجه بأسمى عبارات الشكر والتقدير لأستاذنا الفاضل د/سليمان قوراري الذي أشرف على بحثنا هذا، فنشكره على حسن رعايته للبحث، ومتابعته لفصوله ومباحثه. وله منا جزيل الشكر على ما وفره لنا من توجيهات، ولا سيما إمداده لنا بالمصدر الأساس للبحث: كتاب"أليس الصبح بقريب".

نسأل الله التوفيق والسداد.

مــدخل

ترجمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

مدخل: ترجمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:

هو الشيخ الإمام العلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، وأمه فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب بن محمد بن محمد بوعتور.

مولده:

رأى محمد الطاهر بن عاشور النور في بيئة تونسية كريمة تحب العلم وتذخر به، «فقد ولد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في بيت جده لأمه الوزير محمد العزيز بوعتور، والذي كان من تلاميذ محمد الطاهر بن عاشور الجد وذلك بضاحية المرسى في جمادى الأولى سنة 1296هـ/سبتمبر 1879م.»[1] وترعرع في أسرة علمية عريقة تمتد أصولها إلى بلاد الأندلس، وقد استقرت هذه الأسرة بتونس بعد حملات التنصير ومحاكم التفتيش التي تعرض لها مسلمو الأندلس. ونبغ منها عدد من العلماء الذين تعلموا في جامع الزيتونة، على غرار الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

نشأته وتعليمه:

نشأ الشيخ بن عاشور نشأته المميزة على أكمل الخصال، وأفضل المناهج التربوية، في كنف والده وجده لأمه، فروعي بأحسن الصفات الدينية والخُلُقية التي توافرت جميعها في هذه البيئة الأصيلة العلمية الراقية، وتكون تكوينا علميا ودينيا موجها، بدأه بحفظ القرآن الكريم في سن السادسة على المقرئ محمد الخياري، فخير ما يُعطى ويُهدى للطفل تعليم الكتاب العزيز، «فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أدِّبوا أولادكم على خصالٍ ثلاث: حب نبيّكم، وحب أهل بيته، وعلى قراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، مع أنبيائه وأصفيائه.) رواه صاحب مسند الفردوس.»[2] كما أن بن عاشور كان

[1] محمد بوذينة: مشاهير التونسيين، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس،ط:1، 1987، ص: 390؛ ينظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج:6، دار العلم للملايين، بيروت(لبنان)، ط:5، 2002، ص: 174.

[2] جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت(لبنان)، دط، ص: 52.

يتلقى دروساً في اللغة في مسجد سيدي أبي حديد ؛وهو مسجد ملاصق دار جده الوزير[1]. وقد تجلت التربية الدينية بوضوح في شخصية الشيخ بن عاشور فقد حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ونال عدة إجازات في علوم القرآن والسنة النبوية، والتي نخص منها بالذكر إجازته في الحديث النبوي الشريف، وقد كتبها له شيخه سالم بوحاجب الذي سمع منه وأخذ عنه الكثير من الأحاديث.

ولما بلغ سن الرابعة عشر التحق شيخنا بجامع الزيتونة في سنة 1310هـ/1892م «بدفتر دراسي يحمل رقم 3036، كتب في الصفحة الأولى منه الحمد لله–دفتر شهادات اتصل به صاحبه في 18 شعبان سنة 1310. وفي الصفحة الثانية:الحمد لله– هذا الدفتر المبارك باسم صاحبه التلميذ النجيب محمد الطاهر بن عاشور بن الفاضل الماجد الحسيب الشيخ السيد: محمد بن عاشور من أبناء الحاضرة فتح الله تعالى عليه. وملاحظات شيوخ بن عاشور في هذا الدفتر الدراسي تدل على أنه سيكون ذا مستقبل زاهر وأثر بالغ في العالم الإسلامي.»[2]

وباعتبار أن الدراسة في جامع الزيتونة في ذلك العهد لم تكن خاضعة لنظام مضبوط أو مقيدة بجداول ملزمة، «فقد كان بإمكان الطلبة الالتحاق بمن شاءوا من الشيوخ فوجد الشيخ بن عاشور عناية خاصة من الشيخ عمر بن الشيخ في ترتيب دروسه وتعين مشايخه الأولين.»[3] فظهرت على شيخنا علامات الذكاء والنباهة وسرعة الحفظ في سن مبكرة، فكان حريصاً على طلب العلم مدركا لقيمة الوقت في حياة المسلم، ولهذا كان يقضي معظم أوقاته في المطالعة والتحرير.

وفد وصفه الشيخ محمد الخضر[4] في مقاله "شيخ جامع الزيتونة الأعظم في تونس" بقوله: «...فكنت أرى لساناً لهجته الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيّء، وهمّة طمّاحة إلى المعالي، وجدّاً في العمل لا يلمسه الكلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه، وبالإجمال ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي

---

[1] ينظر: محمد الحبيب بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1:شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (قطر)، دط، ص: 154

[2] حجيبة شيدخ : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مذهبه وآراؤه العقدية، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،قسنطينة، الموسم الجامعي: 1415هـ/1995م، ص: 18

[3] محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ج:3، ص: 304

[4] هو محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني التونسي، عالم وأديب ولد سنة 1293هـ/1876م في نفطة بتونس، تخرّج من الزيتونة ودرّس فيها، وهو منشئ مجلة "السعادة العظمى"، توفي سنة 1377هـ/1958م. (خير الدين الزركلي: الأعلام، ج:4، ص:13.)

بعبقريته في العلم.»[1] وهكذا يكون طالب العلم، ذا همة عالية، وخصالٍ نبيلة، آخذاً بأسباب العلم، وعارفاً بسبل مناله، وفي هذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

أَخِي لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إلّا بِسِتّةٍ سَأُنَبِّئُكَ عَنْ تَفْصيلِها بِبَيانِ

ذَكاءٌ وحِرْصٌ واجْتِهادٌ وبُلْغَةٌ وصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وطولُ زَمَانِ.[2]

وقد كان لشيخنا سبق التفوق في شتى أصناف العلوم يشهد له بذلك تلامذته وكبار المشايخ والعلماء الذين احتك بهم.

أهم شيوخه:

اكتسب الشيخ بن عاشور ثقافة موسوعية شملت مختلف العلوم، ومما ساعده على تمتين ذلك تتلمذه على أكبر علماء الزيتونة في عهده ومن هؤلاء العلماء:[3]

1-الشيخ محمد العزيز بوعتور: 1325/1240هـ- 1905/1820م.[4]

وهو جد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لأمه، وقد كان له الفضل الكبير على مسيرة بن عاشور العلمية، فقد بلغت درجة اهتمامه به إلى إعطائه مكتبته الخاصة لما لاحظه من شغفه بالعلم، فعكف شيخنا على مخطوطاتها وأمعن في قراءته لنفائسها.

وكثيراً ما يثبت لنا الشيخ بن عاشور تتلمذه على يد جده الوزير، من خلال ما يليه عليه من آراء وتصحيحات في تفسيره التحرير والتنوير.

[1] محمد الخضر حسين: شيخ جامع الزيتونة الأعظم في تونس، مجلة الهداية الإسلامية، ج:5، سنة1351 هـ، ص:221

[2] محمد بن إدريس الشافعي(الإمام الشافعي): ديوان الإمام الشافعي، ت: عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة، بيروت(لبنان)، ط:3، 1426هـ/2005م، ص: 122.

[3] محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج 20: تونس وجامع الزيتونة، دار النوادر، سورية=لبنان=الكويت، ط:1، 1431هـ/2010م، ص:125

[4] محمد النيفر: عنوان الأريب مما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب، ج:2، ص:183/178

ومما يمكن استنتاجه أن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تخرج على يد علماء أجلاء كان لهم دور كبير في نبوغه، وهذا ما يظهر لنا من خلال ما سلف ذكره من العناصر، حيث إنه قد اجتمعت عدة عوامل ساعدت على تفوق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مختلف العلوم.

2-عمر بن الشيخ: 1329/1239هـ- 1909/1819م.[1]

واسمه الكامل عمر بن أحمد بن حسن بن علي بن قاسم المعروف بابن الشيخ، وقد كان هذا الشيخ يدرس مختلف العلوم الإسلامية، درس عليه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور تفسير البيضاوي، وقد أشاد الشيخ بن عاشور بمنهج أستاذه في التدريس فيقول: «وأنا ما رأيت في علماء جامع الزيتونة من يسلك في دروسه غير طريقة الإلقاء، إلا الشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ مصطفى رضوان، مع أنهما معترف لهما بقوة العلم وخاصة الشيخ عمر بن الشيخ.»[2]

3-الشيخ محمد النجار:1331/1255هـ-1911/1835م[3].

هو أبو عبد الله محمد بن عثمان بن محمد النجار،من أكبر علماء تونس وأكثرهم إنتاجا، وقد درس عليه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور كتاب المواقف.

4- محمد النخلي: توفي سنة 1342هـ- 1922م.[4]

تذكر أغلب المصادر التي ترجمت لابن عاشور أنه تتلمذ على يد هذا الشيخ الجليل، لكنها لم تحدد العلوم التي أخذها عنه، واكتفت بالإشارة إلى تمكنه في مختلف العلوم.

---

[1] محمد النيفر: عنوان الأريب مما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب، ج:2، ص:172

[2] محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب (التعليم العربي الإسلامي: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية)، دار سحنون للنشر والتوزيع، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، (القاهرة)، 2006م/1427هـ، ط:1، ص: 201

[3] محمد الفاضل بن عاشور: تراجم الأعلام، ص: 164

[4] محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ج:3، ص:304

5-الشيخ سالم بوحاجب: 1244هـ/1343هـ-1828م/1923م.[1]

تتلمذ عليه بن عاشور بالزيتونة، وقد كان هذا الشيخ بارعا في مختلف العلوم خاصة علوم اللغة والأدب، ومما أخذه عنه ابن عاشور شرح القسطلاني على البخاري، وقد صرّح بن عاشور بتتلمذه على هذا الشيخ في تفسيره ومن ذلك قوله:« وقد جرت على هذه القراءة نادرة لطيفة وهي ما اخبرنا شيخنا الأستاذ الجليل سالم بوحاجب.....»[2].

مؤلفاته:

مما صادفناه من خلال اطلاعنا على سيرة الطاهر بن عاشور، أنه من أكثر علماء العصر الحديث تأليفاً للكتب، فلقد تفنّن وبرع في تأليفها مع ما كان يشغله من وظائف في حياته اليومية، فلا نملك إلا الاعتراف بعبقريته. فشيخنا كان غزير الإنتاج في مختلف العلوم الإسلامية، وكذلك اللغة والأدب العربي، والتي وصلت إلى حد أربعين مؤلفاً نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أولاً: ما ألّفه في العلوم الإسلامية: ومنها:

1- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، وهو المشهور بتفسير:التحرير والتنوير، كتبه بن عاشور كخلاصة لتلك الدروس التي كان يلقيها على طلبة الزيتونة، وهو تفسير ضخم جمع ثقافة موسوعية واعية، وقد اهتم فيه بن عاشور بفن البلاغة كثيرا لأنه رأى أن المفسرين الذين سبقوه لم يهتموا بهذا الفن كثيراً كما اهتموا بالفنون الأخرى، في حين أنه لا تخلوا آية من القرآن عن دقائقه ونكته، وقد وضع شيخنا لتفسيره هذا عشر مقدمات هي عون لكل باحث في علم التفسير[3].

2- التوضيح والتصحيح في أصول الفقه.

3- حاشيه على التنقيح للقرافي.

[1] محمد الفاضل بن عاشور: تراجم الأعلام، الدار التونسية(تونس)، 1970، ص:221

[2] محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج: 12، ص: 121.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ج:1، ص: 9/8

4-مقاصد الشريعة الإسلامية، يقول عنه البوطي:« من أهم ما يمتاز به أنه أول مؤلف على حد إطلاعي مستقل يعالج موضوعا من أبرز وأهم موضوعات أصول الفقه ألا وهو مقاصد الشريعة، ويفرده بالبحث والتحليل، وربما تبعه من سار على غراره فأفرده رسالة أو بحثاً في هذا الموضوع ولكني، لا أعرف كتاباً مستقلاً في كتاب مقاصد الشريعة قبل كتاب الشيخ بن عاشور»[1].

5- قصة المولد النبوي الشريف.

6- الوقف وآثاره في الإسلام.

7- النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح.

8- أليس الصبح بقريب:جمع آراء ابن عاشور التربوية وخلاصة كفاحه من أجل إصلاح التعليم الزيتوني.

ثانياً: ما ألفه في علوم العربية والأدب ومنها مايلي:

1-أصول الإنشاء والخطابة .

2-موجز البلاغة.

3-جمع وشرح ديوان يشار بن برد.

4-شرح مقدمة المرزوقي على ديوان الحماسة.

5-الواضح في شرح مشكل المتنبي.

6-جمع وشرح وتحقيق ديوان: النابغة الذبياني.

وإلى جانب ما ألفه بن عاشور من كتب فقد كان كثير الكتابة في الصحف والمجلات في تونس والعالم الإسلامي ككل. ومن المجلات التي كان يكتب فيها[2]: السعادة العظمى ، المجلة الزيتونية، هدى الإسلام، نور

[1] البوطي:كتاب مقاصد الشريعة للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ملتقى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور 14، 1985/12/16 الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، تونس.

[2] حجيبة شيدخ : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مذهبه وآراؤه العقدية، ص:21

الإسلام، مصباح الشرق، مجلة المنار، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجلة الهداية الإسلامية .

موقفه من النظام البورقيبي:

لقد كان الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مناهضا لسياسة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة الذي كانت له خلافات قديمة مع علماء جامع الزيتونة، حتى وصل به الأمر إلى وضع حد للتعليم بجامع الزيتونة بمساعدة محمد المسعدي –وزير التربية والتعليم أنذاك– الذي كان يدعم نمط التعليم الغربي، وبذلك يكون بورقيبة قد قضى على نظام تعليمي متكامل دام حوالي13قرناً، وهو ما حزّ في نفس الشيخ بن عاشور الذي كان رافضا لقرار إلغاء التعليم الأصلي بجامع الزيتونة. ومن المواقف المشهورة للطاهر بن عاشور رفضه القاطع لفتوى تبيح إفطار العمال في رمضان التي أصدرها بورقيبة سنة 1381هـ/1961م بحجة زيادة الإنتاج وطلب من الشيخ أن يفتي في الإذاعة بما يوافق هذا، لكن الشيخ صرح بما يريده الله تعالى، بعد أن قرأ آية الصيام في قوله تعالى:﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيْ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنّاْسِ وَبَيّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَاْنِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَاْنَ مَرِيْضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ ايّامٍ أُخَرٍ يُرِيْدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيْدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَيكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[1]، ثم قال قولته المشهورة: صدق الله وكذب بورقيبة، فخمد هذا التطاول المقيت وهذه الدعوة الباطلة بفضل مقولة الشيخ بن عاشور.[2]

وهذا الموقف دليلٌ على شجاعة الشيخ بن عاشور وصفاء دخيلته، فقد كان يقول الحق ولا يخاف فيه لومة لائم، فأين نحن اليوم من صفات هذا العالم الجليل.

وفاته:

بعد كفاح طويل وجهاد مستمر من أجل إرساء قواعد العلم والتعليم ببلده تونس والعالم الإسلامي كله، «التحق شيخنا رحمه الله إلى جوار ربه قبل صلاة المغرب على الساعة السابعة من يوم الأحد 13رجب 1393هـ/12 أوت 1973م، وقد ختمت أنفاسه الزكية بعد انحراف بسيط دام بعض يوم لم يلزمه الفراش حتى

[1] البقرة 185

[2] ينظر: مصطفى عاشور، ملتقى أهل الحديث: منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين، www.ahlhadeeth.com، التوقيت: الخميس 13 أبريل 2017، 15:00.

أنه أدى صلاة العصر كالمعتاد ،وهو إلى ما قبل وفاته لم ينقطع عن نشاطه العلمي.»[1] فرحم الله الشيخ بن عاشور، وشكر له على ما بذله من عطاء في سبيل النهوض بالأمة العربية والإسلامية.

[1] حجيبة شيدخ : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مذهبه وآراؤه العقدية، ص: 22.

الفصل الأول

التعليم الزيتوني قبل الطاهر بن عاشور وأيامه.

الفصل الأوّل: التعليم بجامع الزيتونة قبل الشيخ بن عاشور وأيّامه.

تمهيد:

التعليم الزيتوني هو نظام التعليم الذي كان قائما بجامع الزيتونة في تونس قبل اتخاذ الحكومة التونسية قرار إلغائه سنة 1945م، وهو نظام دام ما يقارب الثلاثة عشر قرنا لعب خلالها دوراً ريادياً في نشر الثقافة العربية والإسلامية في المغرب العربي وفي العالم الإسلامي كله، وقد تخرّج من أحضان هذا التعليم نخبة من رموز العلم والفكر، كان من أبرزهم الإمام العالم محمد الطاهر بن عاشور رائد الإصلاح والتجديد في الفكر العربي والإسلامي؛ وقد شهد التعليم الزيتوني جملة من التطورات والتحولات على اختلاف المراحل والفترات، سواء أكان ذلك قبل الشيخ بن عاشور أو على عهده وهذا ما نبتغي التفصيل فيه والتمحيص.

المبحث الأول: التعليم بجامع الزيتونة قبل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

إذا ما أردنا الحديث عن التعليم الزيتوني قبل الطاهر بن عاشور فعلينا العودة إلى الوراء فترات زمنية طويلة لنسبر أغوار تاريخ الزيتونة المديد ونكشف عن مكنوناته ,ولكي نتمكن من تحقيق تغطية شاملة لأطوار التعليم الزيتوني من النشأة وصولا إلى ميلاد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور علينا أن نحقق النقاط الآتية:

أولا: تأسيس جامع الزيتونة .

ثانيا: التعليم الزيتوني في مراحله الأولى.

ثالثا: التعليم الزيتوني في مرحلة الإصلاح.

ومن خلال المرور على هذه المراحل الثلاث الرئيسية من تاريخ الزيتونة يتأتى لنا أن نحيط علما بواقع التعليم في الزيتونة كيف كان وكيف أصبح إلى عصر شيخنا الإمام بن عاشور .

أولاً:تأسيس جامع الزيتونة :

تذكر معظم المصادر التاريخية وأمهات كتب التاريخ أن اللبنة الأولى لجامع الزيتونة كانت على يد«الأمير حسان بن النعمان الغساني[1] الداخل لافريقية سنة 79هـ[2] ،ثم جاء الأمير عبيد الله بن الحبحاب[3] الداخل سنة 114هـ /733م وأتمّ بناءه سنة 141هـ/758م، ولما تولى زيادة الله بن الأغلب[4] الإمارة بالقيروان أحدث به أبنية فخمة، فصار من أحسن الجوامع القائمة على أساطين من المرمر والرخام سنة 255هـ»[5]. ثم من ذلك العهد وقعت فيه زيادات وترميمات، إلى أن صار الآن كما يراه الزائر ضخم البناء، متّسع الرحب والفناء، أدام الله عمرانه.

وجامع الزيتونة هو ثاني الجوامع الكبرى في المغرب الإسلامي بعد جامع القيروان الذي أسسه عقبة بن نافع[6] سنة 50هـ.وتذكر المصادر أن الأمير حسان بن النعمان لم يبنه ليكون مكانا للعبادة وحسب، بل أيضا لتحقيق أغراض دفاعية، حيث أسّسه على أنقاض حصن قديم ليكون مكانا للمصلين والمدافعين على خط الواجهة البحرية للدولة الإسلامية في المغرب الكبير التي كانت آنذاك في فترة صراع ومواجهة مع الدولة البزنطية، وتشير كتب التاريخ إلى أن أصل تسميته بجامع الزيتونة راجع إلى كون أنه بني في ساحة تتوسطها شجرة زيتون فسمي باسمها.

---

[1] حسان بن النعمان بن المنذر الغساني، كان بطلا شجاعا غزاءً، افتتح في المغرب بلادً وصالح البربر وقرر عليهم الخراج، توفي سنة ثمانين للهجرة. (ينظر: شمس الدين محمد الذهبي: تهذيب سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت (لبنان)، ط:1، 1412هـ/1991م، ت: شعيب الأرنوط، ج:1، ص: 148/147)

[2] تاريخ دخول هذا الأمير إلى إفريقية فيه اختلاف، وكذا مدة حكمه بها، فقد ذكر الذهبي في كتابه "تهذيب السير" أنه قد حكم على بلاد المغرب نيفا وعشرين سنة ومات سنة ثمانين للهجرة، ولكنه لم يشر إلى تاريخ دخوله، أما محمد الخضر حسين في كتابه "تونس وجامع الزيتونة" فقد ذكر دخوله سنة 79هـ، ولكنه لم يشر إلى مدة حكمه ولا إلى تاريخ وفاته.

[3] عبيد الله بن الحبحاب السلولي الموصلي، (توفي بعد123هـ-741م)، أمير من الرؤساء النبلاء الخطباء. كان مولىً لبني سلول ونشأ كاتباً، وولي مصر زمناً، ثم نقله هشام بن عبد الملك إلى إفريقية. (ينظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ص: 192)

[4] زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم، أبو محمد (172-223هـ/744-838م)، رابع الأغالبة أصحاب إفريقية، ولّي بعد وفاة أخيه عبد الله سنة 201هـ.(ينظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ص: 56)

[5] محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج 20: تونس وجامع الزيتونة، ص: 28

[6] عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري(1ق هـ-63هـ/621-683م)، فاتح، من كبار القادة في صدر الإسلام، وهو باني مدينة القيروان.(ينظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج:4، ص: 241)

«ومن الواضح أن القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي مثّل فترة انتعاش و ازدهار اقتصادي وتطور عمراني لمدينة تونس، ولعل هذه الأسباب هي التي دفعت بأبي إبراهيم أحمد أمير الدولة الأغلبية إلى إعادة بناء الجامع، وقد بدأ الأشغال به سنة 248هـ/863م ،لكن أدركته المنية قبل الانتهاء منها سنة 249هـ/864م، فواصل هذه الأعمال أخوه زيادة الله الثاني الذي مات هو أيضا قبل نهاية البناء سنة 250هـ/864م، وهو ربما السبب الذي دفع إلى نسبة هذه الأعمال إلى الخليفة المستعين بالله العباسي»[1]، وهكذا ومنذ ذلك الحين أصبح للمسجد شكله ومساحته الحاليين ،وقد احتفظ المسجد بهيئته المعمارية الراجعة إلى فترة تأسيسه ولكن هذا لايمنع وجود بعض أعمال الترميم والإضافة في مختلف الفترات .

أما بالنسبة لتأثير جامع الزيتونة العلمي والحضاري في أطواره الأولى فإن معظم المصادر والأبحاث التاريخية تؤكد على أن الجامع الأعظم في مراحله التأسيسية الأولى لم يكن يتعدى أن يكون مسجدا، أي مكانا للعبادة، وكما هو معلوم فإن كلمة مسجد يراد بها مكان السجود أو المكان الذي تقام فيه الصلاة لاغير، ومسجد الزيتونة لم تطلق عليه تسمية جامع أعظم إلا حينما أصبح مكانا يجتمع فيه الناس وتعقد به حلقات العلم والتعليم وأصبح صرحا علميا يتوافد عليه طلاب العلم من مشرق الأرض ومغربها .

ثانياً: التعليم الزيتوني في مراحله الأولى

لم تكن البلاد التونسية قبل الفتح الإسلامي بلاد علم أو حضارة، ولم يكن للتعليم فيها قبل ذلك وجود أو أثر، فالحياة فيها هي حياة يغلب عليها طابع البساطة والانغلاق على العوالم الأخرى، فقد«كان الذين يعمرون البلاد التونسية والجزائرية والمراكشية صنف البربر، ولكن بعد الفتح الإسلامي هاجر إليها خلق كثير من العرب الخلص، فانتشرت هنالك اللغة العربية، وأصبح سكان تلك البلاد بعد هذا الاختلاط أقواما مستعربين، إلا قبائل متفرقة، معظمها بالمغرب الأقصى، وبعضها في الجزائر، وقليل منها في تونس»[2]. وبعد انتشار الإسلام واللغة العربية في البلاد التونسية كان لا بد من تعليم أهلها من البربر أحكام دينهم وواجباتهم، وقواعد لغتهم الجديدة التي هي أساس لفهم القرآن وأحكامه، وبهذا بدأت تعقد حلقات التعليم لأجل تحقيق تلك الأغراض، وأخذت

[1] محمد الباجي بن مامي: جامع الزيتونة أهم معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية، المعهد الوطني للتراث،(تونس)، صفحة إلكترونية، التوقيت: 2016/12/28، ص:1/1.

[2] محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج 20: تونس وجامع الزيتونة، ص:21

العلوم الإسلامية تنتشر في البلاد، وابتدأ أهل تونس يرتحلون إلى المشرق لتلقي العلوم.

أما فيما يتعلق بالتعليم الزيتوني فإن تاريخ بداية التعليم في جامع الزيتونة مجهول،«فلم تمدّنا المصادر بتاريخ بداية التعليم فيه، ولا نعلم أيضا متى أصبح هذا التعليم منظما، وأوّل نص يشير إلى التدريس بجامع الزيتونة يعود إلى سنة 603ه/1206م،»[1] فلم يكن الجامع يحظى بذلك الاهتمام الكبير بين الناس إلاّ مع بداية العهد الحفصي[2]، حيث أصبح له شأن عظيم، وصار يحتلّ مكانة متفرّدة في نفوس أمراء مدينة تونس وحكامها؛ فقد كانت القيروان منذ الفتح الإسلامي عاصمة للمملكة التونسية، وكان جامعها الذي اختطه عقبة بن نافع من أكبر المعاهد التي يؤمها طلاب العلم من شتى النواحي، ولما انتقل كرسيّ الإمارة إلى مدينة تونس حينما اختارها "عبد المؤمن بن علي"وحلفاؤه مركزاً للإمارة وعاصمة للبلاد أصبحت الحركة العلمية بها في نموٍّ وازدهار،[3] وهذا ما انعكس بالإيجاب على جامع الزيتونة الذي صار«محطّ رحال طلاب العلم بدل جامع القيروان، وأخذ جامع الزيتونة يغالب جامع القيروان، وأخذ اسمه يتردّد أكثر ممّا كان، وأصبح لأهل القطر التونسي تعلّق شديد بهذا البيت العتيق وتشبّثٌ عظيم بعرصاته. فإذا أطلقوا الجامع الأعظم فمرادهم جامع الزيتونة،»[4] ونتيجة لذلك ازدهر التعليم به.

وأوّل بداية حقيقيّة للتعليم في جامع الزيتونة كانت في أواسط العهد الحفصي، لكنه لم يكن منظّما، وكان يعيبه التشتّت والإهمال، «ويبدوا أنه كان للتعليم بالجامع الأعظم خلال الفترة الحفصية حرّية شبه مطلقة، فيستطيع الطالب القدوم في أيّ وقت، ولا يُجبر على الانتساب إلى حلقة دون أخرى، وهو ليس مجبراً على التقيّد

---

[1] محمد الباجي بن مامي، التعليم بجامع الزيتونة وبمدارس العلم في العهد الحفصي، (نقلاً عن: الشيخ محمد البشير النيفر في مقاله: تاريخ الحركة العلمية بجامع الزيتونة، المجلة الزيتونية، ج:10، سنة 1936م، ص:553)؛ المعهد الوطني للتراث،(تونس)، صفحة إلكترونية، التوقيت: 2016/12/28، ص:1/1.

[2] أول من تملك من بني حفص المولى أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى ويصل نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو مؤسس الدولة الحفصية، وقد قعد مقعد الإمارة على حاضرة تونس في العاشر من شوال سنة 603هـ بعد أن ولاّه الخليفة الموحدي الناصر بن المنصور عليها. (ينظر: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني(بن أبي دينار): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط:1، 1286هـ، ص: 124)

[3] ينظر: محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج 20: تونس وجامع الزيتونة، ص: 28

[4] منير الكمنتر بن الكيلاني: الجامع الأعظم الزيتونة في القرن الرابع عشر الهجري، مقال إلكتروني، www.fichier-pdf.fr/komanter monir.com، التوقيت: 2014/7/11، ص:320

بأحد الشيوخ، لذلك يستطيع أن ينتقل من حلقة إلى أخرى، أو كذلك يمكن له أن يلازم شيخاً واحداً»[1]، كملازمة البرزلي لشيخه بن عرفة مدّة أربعين سنة؛ وقد عرفت الفترة الحفصية إنشاء مدارس تعليمية بمدينة تونس «فكان العديد من الطلبة بعد دراستهم بإحدى المدارس يواصلون تلقّي العلم في الجامع، كما نلاحظ أن العديد من العلماء وموظَّفي الجامع من أئمة وقضاة ومفتين يعيّنون شيوخاً في بعض المدارس»[2]. وبذلك يمكن القول إنه ابتداءً من عهد الحفصيين عرف جامع الزيتونة انطلاق أولى بوادر التعليم فيه، حيث أصبح حينها مدرسة يرتادها الطلبة لتلقّي العلم والمعرفة. وقد انتسب له آنذاك العديد من العلماء والمفكرين الذين تخرّجوا منه، نذكر من بينهم المفسّر والمحدّث محمد بن عرفة، وعبد الرحمان بن خلدون المفكّر ومبتكر علم الاجتماع.

ومع نهاية العهد الحفصي عرف التعليم بجامع الزيتونة انتعاشاً وازدهاراً كبيرين، وهي الفترة التي أصبح فيها الجامع أحد الأقطاب العلمية والدينية الكبرى في المغرب والمشرق الإسلاميين، شأنه شأن جامع القيروان وجامع الأزهر بمصر وجامع القرويين بفاس، «فانطلاقاً من الربع الثاني للقرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ازدهر التعليم بالجامع وأصبح له شأن عظيم وعرف بصفته معهداً علميّا، وجاءه الطلبة كذلك من الناحية الغربية للبلاد (المغرب الأقصى والجزائر حاليّا وحتى السودان)، لهذا أصبح جامع الزيتونة من أهم الجامعات الإسلامية في المغرب الإسلامي.»[3]

لكنّ التعليم بالجامع الأعظم عرف بعد ذلك نكسة كبرى وتراجعاً مريعاً في نشاطه نتيجةً لتأثّره بالأوضاع السياسية التي آلت إليها الدولة الحفصية آنذاك، انتهت بسقوطها ودخول الإسبان إلى مدينة تونس في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي الذين عاثوا في الأرض فساداً، حتى أنه يقال إن نفائس الكتب والمصنفات كانت ترمى على قارعة الطريق وتداس بالأقدام؛ ثمّ مجيء العثمانيين[4] بعد ذلك الذين أهملوا الجامع في فترة حكمهم الأولى وذلك لاعتماده المذهب المالكي ومخالفته لمذهبهم الحنفي. لكن لم يدم هذا طويلاً، فما لبث أن

---

[1] محمد الباجي بن مامي: التعليم بجامع الزيتونة وبمدارس العلم في العهد الحفصي، ص:1/1

[2] المرجع نفسه: ص:1/1

[3] محمد الباجي بن مامي: جامع الزيتونة أهم معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية، ص:1/1

[4] ينظر: نزار قازان: سلاطين بني عثمان، دار الفكر اللبناني، بيروت(لبنان)، دط، في باب: تأسيس الدولة العثمانية، ص: 17،18؛ ينظر كذلك: محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج:2، ت: علي الزواري ومحمد محفوظ؛ دار الغرب الإسلامي،بيروت (لبنان)، ط:1(1988)، في باب: دخول العساكر العثمانية المنصورة لإفريقية لإنقاذها من أيدي أهل الكفر والضلال، ص: 84/70

استعاد الجامع مكانته الأولى ابتداءً من النصف الثاني للقرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وبذلك عاد النشاط التعليمي ليزدهر مجدّداً بجامع الزيتونة، وازداد عدد الطلبة الملتحقين به، غير أنه ما يميّز التعليم الزيتوني في هذه الفترة هو أنه أصبح أكثر تنظيماً وإحكاماً ممّا كان عليه سابقاً في فترة الدولة الحفصية.

وممّا يمكن ملاحظته على صفة المواد التي كانت تُدرّس في أوائل العهد الحفصي«أن علوم القرآن من القراءات والتفاسير كذلك علوم الحديث، كانت أهم ما يحصل درسه بجامع الزيتونة، إذ اعتمد المذهب الموحّدي على هذين العلمين في التدريس، لكن عند رجوع المالكية إلى سيطرتها المطلقة أعطيت أهمية لمادة الفقه فروعاً وأصولا، وإلى جانب المحَدِّثين والفقهاء وُجِد أصحاب علم الكلام، كما اهتمّ الأساتذة بعلمي النحو والصرف، هذا إضافة لعلم الفرائض والأدب والتاريخ والبلاغة والجدل والمنطق، وبعض العلوم الأخرى»[1]كعلم الحساب والفلك والرياضيات والتنجيم وكذا علوم الطب والتمريض.

ثالثاً: التعليم الزيتوني في مرحلة الإصلاح.

رغم أن التعليم بجامع الزيتونة قد استمرّ على هيأته الأولى بعد استقرار الخلافة العثمانية بتونس، إلاّ أنَّ ذلك لم يمنع من دخول بعض الإصلاحات والتغييرات على نظام التعليم الزيتوني، ولأن التعليم ولاشك مرتبطٌ بالسياسة، فقد عرف التعليم بالجامع تقلّبات وتذبذبات في فترة حكم الدولة المرادية[2] التركية بتونس، خاصة وأن بعض أمرائها المتعاقبين على الحكم لم يُعطوا اهتماما بالغا للعلم والتعليم، وكانت قد تقاصرت مداركهم عن فهم أهمية العلم والعلماء، حتى وصل الأمر إلى حدِّ قتل العلماء في سبيل تحيق نزواتٍ واهية؛ وقد ذكر شيخنا الإمام محمد الطاهر بن عاشور قصّة مقتل أحد علماء الزيتونة في هذه الفترة بقوله:«وقد ذكر المؤرِّخون الوقعة المشؤومة وهي مقتل العلاّمة حمودة فتاتة بن الشيخ المفتي محمد فتاتة بإذنٍ من مغنّي رمضان باي المسمَّى: مزهود، حيث أخذته الغيرة من اقتراب هذا العالم من مخدومه رمضان باي، فأغراه به حتى أبعده، فأخذ يُقرئ بالجامع الأعظم فأسرّ مزهود إلى إمام الجامع أبي الغيب البكري، فمنعه من الإقراء بالجامع، فنقل درسه إلى أحد مساجد الحاضرة، فأغرى به مزهود من قتله.»[3]

---

[1] محمد الباجي بن مامي: جامع الزيتونة أهم معالم مدينة تونس الأثرية التاريخية، ص:1/1

[2] نسبة إلى مراد باي المؤسس الأول لها؛ وقد تمت مبايعته للخلافة بتونس سنة 1041هـ/1631م.(ينظر: محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج:2، ص: 98)

[3] محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص:80

وكان من بين علماء الزيتونة القلائل الذين برزوا في عهد الدولة المرادية الشيخ عاشور القسنطيني العلّامة، والشيخ أبو الحسن النعاس،والشيخ محمد الغمّاري النحوي، والشيخ محمد بن مصطفى مفتي الحنفية، والشيخ سعيد الشريف[1]؛ ومما يمكن ملاحظته عن طابع التعليم الزيتوني في هذه الفترة، أنّ علم الفقه هو أكثر العلوم التي كانت تدرّس بالجامع حينها، فقد غلب تعليمه على تعليم صنوف العلم الأخرى، وهذا راجع إلى تزاحم مذهب الحكّام العثمانين الحنفي مع مذهب العامة من الناس المالكي، فكانت تُعطى الأولوية في التعليم للفقه الحنفي، يليه بعد ذلك الفقه المالكي، وهذا ما جعل تعليم الفقه ينال قدراً وافراً من الاهتمام.

وبعد انتهاء حكم الدولة المرادية بتونس حلّت محلّها الدولة الحسينية[2]، وفي أوائل هذه الفترة عرف التعليم الزيتوني انتعاشا وازدهاراً كبيرين، وذلك لما عُرف من اهتمام الأمراء الحسينين بالتعليم وحُبِّهم الشديد للعلم والعلماء، وهذا ما انعكس بالإيجاب على أمر التعليم بالزيتونة، ومن أبرزهم الأمير عليّ[3] الملقّب بالباشا، الذي صرف همّته إلى تنبيه شأن العلم لأنّه كان محبّاً لأهل العلم، وكان له حظٌّ من المشاركة العلمية، فكان سمره بالليل مع العلماء.[4] وقد عرفت فترته تأسيس المدارس المعروفة بالباشية وتأسيس العديد من خزائن الكتب والمكتبات، ومنذ زمنه عرف جامع الزيتونة تطوراً واستقراراً مع تعاقب الأمراء على حكم الدولة الحسينية الذين سلكوا مسلكه في إعلاء شأن العلم، فغدت تعقد بالجامع المحاضرات والدروس العلمية، وأجريت للمدرّسين رواتب من الجزية؛ وخلاصة القول إن أوائل العهد الحسيني تُعدّ من أزهى أيّام التعليم الزيتوني.

ثم حدث أن وقعت فترات من الفتن والنزاعات أدّت إلى تراجع التعليم بالزيتونة وانصراف الناس عنه للاهتمام بالتكسّب والاسترزاق نظراً لما آل إليه الوضع آنذاك من تردٍّ في الحالة الاقتصادية وتفرُّق المدرّسين في

---

[1] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص: 80

[2] نسبة إلى حسين باي بن علي وهو مؤسسها، وقد تمت البيعة له في 20 ربيع الأول 1117هـ/12جويلية 1705م (ينظر: محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ص: 155)

[3] علي باشا بن محمد بن علي تركي، ولد سنة 1101هـ وكفله عمه حسين بن علي تركي، وولاه إمارة الأمحال سنة 1118هـ، (ينظر: محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج:2، المطبعة السلفية، القاهرة(مصر)، 1350هـ، ص: 163)

[4] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص: 82

سبيل طلب الرزق، إلى أن استقرّ الأمر في عهد المشير"أحمد باشا"[1]الذي أدخل جملة من الإصلاحات الهامّة على نظام التعليم بجامع الزيتونة، وقد وصفه الشيخ بن عاشور بقوله:«هذا الأمير وإن لم يكن من أهل العلم فإنّ الله فطره على حبّ معالي الأمور، وجعل له فكرة تسعى إلى العظيم من الأشياء، فكان يقدّر العلم.»[2] ومن بين الإصلاحات التي أدخلها الأمير أحمد باشا، أن عمد إلى تنظيم التعليم في جامع الزيتونة بإصدار مرسوم وزاري في سنة1258هـ/1842م، وكان من مجمل ما جاء في هذا المرسوم: أمرٌ بترتيب «ثلاثين مدرسا في هذا الجامع: نصفهم من الحنفية ونصفهم من المالكية، وأجرى لهم جراية من بيت المال، كما رتب اثني عشر مدرسا: ست حنفية وست مالكية، هم دون الرتبة الأولى في المرتب على أن يقرئ كل واحد منهم بالجامع درسين في أي فن وفي أي وقت تيسر، ومن تخلف من غير عذر شرعي لا يستحق المرتب أيام تخلفه إلا يومي الخميس والجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين، وجعل النظر في ذلك لشيخي الإسلام الحنفي والمالكي والقاضيين الحنفي والمالكي وعين لهم جراية من بيت المال بشرط أن يأتي كل واحد من الأربعة يوما إلى الجامع لتحريض المتكاسلين»[3]، وقد كُتب هذا المرسوم بماء الذهب وعلق على باب الشفاء من الجامع؛ هذا ولم يكتف بهذا القدر، بل كذلك عمد إلى تشكيل هيئةً خاصة من كبار المشايخ والعلماء لتعيين المدرّسين الجدد بالجامع الذين يحوزون على مستوى علمي رفيع يليق بمقام التدريس بالجامع الأعظم؛ إضافة إلى إجراءات إصلاحية أخرى تهدف إلى تطوير نشاط التعليم بالجامع.

وقد مثّل عمله هذا فاتحة الإصلاح الزيتوني، فلم يشهد التعليم الزيتوني ثورة إصلاحية كهذه من ذي قبل، وكان من بين المدرّسين الذين تمّ انتخابهم الشيخ الطاهر بن عاشور: صاحب كتاب "المطوّل في البلاغة"، وهو جدُّ شيخنا الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إضافة إلى نخبة من كبار المشايخ والمدرّسين كالشيخ محمد البنا،

[1] أحمد بن مصطفى باشا، 1221هـ/1806م-1271هـ/1856م، تمت له البيعة يوم الثلاثاء10 رجب 1253هـ/10 أكتوبر 1837م بعد وفاة أبيه. (ينظر: أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وملوك عهد الأمان، الدار العربية للكتاب،(تونس)، دط، ت: لجنة من وزارة الثقافة التونسية، ج:4/المجلد:2، ص:11؛ ينظر كذلك: محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج:2، ص: 174)

[2] محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص:83

[3] محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج:2، ص: 174

والشيخ محمد الشنقيطي، والشيخ علي الدرويش، والشيخ حسن بن الخوجة، والشيخ محمد النيفر، وغيرهم كثير.[1] وأصبح جامع الزيتونة بموجب هذه الإصلاحات جامعة علمية بامتياز تستقطب طلبة العلم من داخل القطر التونسي ومن خارجه لينهلوا من معينه الفيّاض.

وقد استمرّ الأمر على هذه الحال إلى عهد دولة المشير محمد الصادق باي[2] ووزيره خير الدين باشا[3]، حيث كان قد اعترى التعليم الزيتوني بعض الخلل والرّكود والتساهل، يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:«إنّ كثيراً من المدرّسين كان لا يحضر لدروسه أيّاما كثيرة.»[4]وهذا ما دفع بالوزير خير الدين باشا إلى إضافة تعديلات جديدة على نظام التعليم بالجامع، من ذلك أنه«أمر بزيادات في مرتّب المدرّسين، ونظّم طبقة ثانية من المدرّسين بالجامع: ستة من الحنفية ومثلهم من المالكية»[5]،وممّا يُعرف عن هذا الوزير أنه كان مهتمّاً بأمر التعليم بجامع الزيتونة حيث كان يحضر حلقات التدريس بنفسه ليقف على تطبيق إصلاحاته.

وتوالت الإصلاحات بعد ذلك على التعليم الزيتوني، إلى عهد الإمام محمد الطاهر بن عاشور الذي سنُفيض الحديث عن واقع التعليم الزيتوني في أيّامه.

المبحث الثاني: التعليم بجامع الزيتونة أيّام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

النظام التعليمي بصفة عامة هو منظومة فرعية من منظومة أكبر هي المجتمع، فكان من الطبيعي أن يتأثّر بمختلف المتغيّرات الحادثة على المسرح الاجتماعي، وبالتالي فإنّه حتى نعي واقع التعليم الزيتوني أيّام الشيخ الطاهر بن عاشور، يصبح حتماً علينا أن نستقرئ المتغيّرات الاجتماعية المرتبطة بعصره وخاصة ما تعلّق منها بالجانب السياسي، ولكي نتعرّف على حال التعليم الزيتوني في عهد شيخنا الإمام وفق هذه المتغيّرات، وجب علينا أن نحقّق النقاط التالية:

---

[1] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص:84/83.

[2] محمد بن حسين بن محمود بن محمد بن حسين، (1229-1299هـ/1814-1882م)، باي تونس، (ينظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ص: 104)

[3] خير الدين التونسي، السياسي، المصلح، رجل الدولة، أصله من قبيلة أباظة الجركسية الضاربة بجبال الجركس في الشمال الغربي من بلاد القوقاز بمنطقة نهر الكوبان، دخل إلى تونس في سنة 1255هـ/1837م،(ينظر: محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين،ج:2، ص: 271)

[4] محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص:85.

[5] منير الكمنتر بن الكيلاني: الجامع الأعظم الزيتونة في القرن الرابع عشر الهجري، ص:324

أوّلاً: عصره من الجانب السيّاسي.

ثانياً: حال التعليم الزيتوني.

أوّلاً: عصره من الجانب السياسي.

عرف العالم العربي والعالم الإسلامي بصفة عامّة نكسة كبرى بعد بروز الأطماع الاستعمارية الأوروبية على الساحة،«فكانت الفترة التاريخية ما بين 1870م و1914م من أنشط فترات التوسّع الاستعماري، وكانت تونس من أولى البلدان التي شملها هذا التوسّع، فلم يكد يحلّ يوم 23أبريل1881م حتى اجتازت الحدود التونسية الجزائرية قوات فرنسية تزيد عن الثلاثين ألف مقاتل، حاصرت منطقة جبال "خمير" في جهة الشمال ثمّ اتجه جزء منها نحو مدينة "الكاف" فتمّ احتلالها. وفي الوقت نفسه تم قصف مدينة "طبرقة"، ثم في بداية شهر ماي أنزل الأسطول الفرنسي فجأة حوالي ثمانية آلاف جندي توجهت نحو العاصمة مباشرة فحاصرت قصر"الباردو" حيث مقام الباي.»[1]

وقد طالت يد المستعمر بعد ذلك لتصل إلى مدينتي "صفاقس"و"القيروان" ولتشمل باقي أنحاء البلاد التونسية، وكان من نتائج هذه الحملة الاستعمارية الشرسة أن تمّ التوقيع على معاهدة الحماية الفرنسية لتونس بعد أن أُجبر الحاكم محمد الصادق باي على ذلك، لتدخل تونس بعد ذلك في مرحلة جديدة تعدّ من أحلك مراحلها التاريخية وأسوئها على الإطلاق، وقد وصفها الشيخ محمد بن الخوجة في كتابه"شيخ الإسلام" بقوله:«أجل، قامت السياسة الفرنساوية بالاستيلاء على كلّ شيء وعلى الاستبداد بكلّ شيء، فالسلطة السياسية والإدارية والاقتصادية والأمنية لا يمثّل التونسي منها شيئاً، فليست الهياكل السلطوية سوى أجساد خاوية جامدة يحرّكها المستعمر، ويقصر دورها في تنفيذ إرادة المحتل فيما يعود إليه من شؤون، فلا إرادة ولا قدرة لها، وإنما هي مجرّد آلات وهمية طيّعة، لا تتجاوز وظيفتها ما أنيط بها من ردّ الأمور إذا دقّت إلى الحاكم الأجنبي السلطة العليا، ليزنها بميزان نظره ورغباته وتقديره للصالح.»[2]

---

[1] البشير بن الحاج عثمان الشريف: أضواء على تاريخ تونس الحديث، دار بوسلامة للنشر والطباعة والتوزيع(تونس)، ط:1، ص: 16/15.

[2] محمد بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1:شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص:52.

وكان الاحتلال الفرنسي لتونس حلقة أخرى تضاف إلى حلقات الانهيار والتقهقر والضعف الذي أصاب العالم العربي والإسلامي برمّته آنذاك، فدخول البلاد التونسية تحت سلطة المحتل الفرنسي إنما هو ناجم عن ما لحق بالدولة العثمانية العلية من الضعف والتفكّك، والتي احتجب سلطانها ودخلت ولاياتها الواحدة منها تلو الأخرى تحت هيمنة الغرب والحكم الأوروبي.«وبسبب هذه النتائج انكبّ رجال الإصلاح على دراسة علل هذه النكبة، وظهرت ثلّة من المفكّرين والقادة اشتُهروا بدأبهم على انتهاج طريق التحوّل وسبيل الإصلاح لتجديد المقاومة للعدوّ وافتكاك السلطة وتطهير البلاد وحماية العباد من الغاصبين المستبدّين،...وبدأ المفكّرون والعلماء بالدعوة والتوعية وتأكيد الارتباط؛ ارتباط المواطنين بمقوّمات هويتهم وأسباب عزّتهم.»[1]

ولم يكن شيخنا الإمام محمد الطاهر بن عاشور بعيداً عن هذه الدعوة الفكرية الإصلاحية، وكيف يكون ذلك وهو الذي عاش الجزء الأكبر من حياته في ظل الاستعمار التقليدي، فنجد له إسهامات بارزة في توعية الناشئة من أهل البلاد للنهوض بالعلم وشحذ الهمم للرقي بالفكر؛ يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في معرض حديثه عن الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك: «استقرّ الاستعمار وتوطّد أمره، واستولى المستعمرون على أجهزة الحكم والإدارة كافة، فلم يبق لأبناء البلاد أميرهم وحقيرهم من الأمر شيء، واشتدّ ساعد الجالية الفرنسية وتضخّم عددها، ونفذ أمرها، وعلت كلمتها، فاعتبرت البلاد التونسية وطناً لها، ووضعت أبناءها الأصليين ومصالحهم في مدرجة الإهمال، وصارت النظم كلّها مبنية على التقاليد الغربية، مستخفيةً بالديانة الإسلامية والعوائد التونسية.»[2]

ثانياً: حال التعليم الزيتوني.

لاشكّ أن التعليم مرتبط بالمجتمع لذلك فهو يتأثّر لا محالة بما يحيط به من متغيّرات اجتماعية وسياسية، وإذا ما تحدّثنا عن التعليم الزيتوني فإنه لم يكن أفضل حالاً مقارنة بالوضع العام للمجتمع التونسي الذي كان يعيش تحت وطأة الاستعمار، وها هو ذا شيخنا محمد الطاهر بن عاشور يصف لنا الحالة العامة التي أل إليها التعليم بالجامع الأعظم، فيقول في ذلك: «حالة التعليم الموجودة بالجامع تجري على طريقة شبيهة بالاختيارية،

[1] محمد بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1:شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص: 54

[2] محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، ص:58/57.

بحيث إن المدرّس يختار ما يشاء هو أو يُطلب منه من الفنون والكتب والأوقات والمراتب وعدد الدروس؛ والتلميذ يختار المدرّس ومقدار الفنون والدروس على حسب ما يحتاجه وما أهّله له الاختبار العمومي، فهو من أجل هذا أقلّ اختياراً؛ وقد ترتّب على هذه الطريقة نقص فنون كثيرة، وضعف فنون، وتفاوت تلامذة المرتبة الواحدة، فيما يزاولونه من العلوم. ...وليس لابتداء التعليم ونهايته في اليوم وقت، فمن الدروس ما يكون إثر صلاة الصبح أو قبل شروق الشمس، ومنها ما يكون بين المغرب والعشاء، كما أنه لا معادلة بين ساعات النهار في التعمير بالدروس، فإن الدروس تكثر في الساعة 7 والساعة 8 صباحاً، ثمّ تأخذ في الانتقاص قليلاً قليلاً فلا تأتي الساعة 10 حتى تقل، ثم تنعدم أو تكاد في الساعة 11وما بعدها حتى الساعة 12،30، وكذا الحال في دروس المساء تبتدأ قبل صلاة الظهر أي فيما بين الساعة 2 والساعة 3 مساءً بحسب اختلاف طول النهار إلى غروب الشمس.»[1]

وكلّ ما ذُكر سالفاً إنّما قليل، فقد ركّز الشيخ بن عاشور على وصف الدروس وأوقات التعليم بالجامع التي كانت تعاني خللاً كبيراً، فلا مواعيد ابتداء الدروس مضبوطة ولا مواعيد انتهائها كذلك، أمّا حال التحصيل العلمي بالجامع فقد بلغ مبلغاً كبيراً من الضعف والوهن، وانصرف التلامذة عن العناية والاهتمام بدروسهم، فلا يحصّلون قدراً كافياً من العلوم والفنون التي تُلقى بالجامع، وحتى إن تمكّنوا من تحصيلها يغيب عنهم ضبطها وفهمها.

وقد تعرّض الشيخ محمد بن الخوجة للحديث عن حال التعليم أيام الشيخ الطاهر بن عاشور، فيقول مفصّلا في ذلك: «أمّا حال التعليم فقد بلغ بجامع الزيتونة حدّاً من الضعف والوهن، قعد به عما كان يحمله للناس في محيطه من علم وهداية ودعوة إلى الله. وقد أُهمل ضبط أنشطته واختلّ نظامه، فلا هو مجدّد المناهج، ولا كتب الدراسة فيه مقرّرة، ولا أوقات التعليم به محدّدة، ولا الشيوخ المدرّسِون مراقَبون في أعمالهم، تُصاحب هذا كلّه الغفلة عن تنظيم درجات التعليم، وإهمال الدروس التطبيقية والتمارين، وتعطّلت الملكات اللسانية أو كادت، وقلّ التحصيل، وربما زاد من خطورة هذا الوضع قصور الهمم عن التأليف في أيّ علم.»[2]

هذا فيما يخص الوضع العم السائد في التعليم الزيتوني آنذاك، أمّا فيما يتعلّق بأحوال الدروس ومدرسيها في جامع الزيتونة فيصورها الشيخ بن عاشور بقوله: «يباشر المدرسون الرسميون، والمتطوّعون القائمون بالتعليم

[1] محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص:132/131

[2] محمد بن الخوجة: شيخ الإسلام ، ص:37.

مجاناً،...والواجب على المدرس من الرسميين درسان، وقد يكثر أن يتطوع بعض المشايخ المدرسين بدروس زائدة على الدرسين اليوميين، أو في يوم الخميس الذي لا يجب عليهم التدريس فيه بمقتضى نص ترتيب سنة 1258ه، وهذا التطوع مع نفعه يجعل المدرس في سعة من أمر الحضور بالجامع، إذ يمكّنه من الحضور في وقت يتيسّر له إن عسر عليه الحضور في غيره من أوقات دروسه، أما المتطوعون فلأكثرهم دروس متعدّدة، وقد تبلغ دروس الواحد منهم إلى عشرة وأربعة عشر موزعة على الأيام، ولكن القيام بجميعها قلّ ما يقع.»[1] ومن خلال هذا تتضح لنا عشوائية التعليم التي كانت غالبة على صفة الدروس بالجامع، فالمدرّسون لم يكن عليهم إلزام الحضور في أوقات محدّدة، وفي كثير من الأحايين كان يقع التقصير في ذلك، كما أن معظم المدرسين بالجامع لا يلتزمون بعدد الدروس الواجب تقديمها في اليوم الواحد وكثيراً ما يحصل إسقاط بعضها أو انتقاصها، «وقد يقع التقصير في الدروس عن أقل الوقت القانوني وهو تسعة أدراج، فيُفضي إلى تداخل الدروس تارة ويستلزم طول مدة مزاولة الكُتّاب، والتمرين في الدروس ضعيف إلا بمقدار شواهد التآليف_على قلّتها غالباً_خصوصاً في المرتبة الابتدائية، وإلاّ في شرح المكودي على الخلاصة، حيث يُلتزم إعراب أبياتها، وهذا التهاون بالتمرين من أسباب القصور المشاهد على غالب التلامذة.»[2] وبالطبع فإن قصور التلامذة عن التحصيل هو صورة من صور حالة الضعف العامة الواقعة على طابع التعليم بالجامع الأعظم.

هذه هي حال التعليم الزيتوني أيام شيخنا محمد الطاهر بن عاشور، وهي السبب الأكبر والدافع الأعظم الذي حدا به إلى تأليف كتابه الإصلاحي القيّم "أليس الصبح بقريب" الذي ضمّنه آراءه الإصلاحية التي لا زالت تعتبر إلى يومنا هذا مرجعاً يعود إليه كل من يبتغ سبيلاً إلى إصلاح التعليم.

[1] محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص:131

[2] المرجع نفسه، ص: 136.

الفصل الثاني

إصلاح التعليم العربي الزيتوني

الفصل الثاني: إصلاح التعليم العربي الزيتوني.

تمهيد:

يعرّف الإصلاح عند أهل اللغة على أنه: إزالة الفساد أينما ظهر، وقد يتجاوز الإصلاح إلى التجديد والتطوير في الشيء، وجعل اللغويون وعلماء الاجتماع لمصطلح الإصلاح فرعين: أحدهما يتعلق بالفرد، وثانيهما بالأمة.

ومما لاشك فيه أن الناس وبخاصة العلماء وأرباب الغيرة على الدين والوطن كانوا يشعرون بضرورة إصلاح كثيرٍ من الأوضاع بتونس، وعلى رأسها العلم والدين. ولقد كان رائدا الإصلاح: الشيخ محمد النخلي وبو حاجب–وهما من شيوخ بن عاشور– على درجة عالية من العلم، وتعلقت بهما أنظار المصلحين ولكن إرادة الله لم تشأ لهما تصحيح ما كانا يصبوان إليه، وشاءت الإرادة أن يتحقق أملهما على يد مجموعة من العلماء التونسيين، وبخاصة تلميذهما الشيخ الطاهر بن عاشور الذي آتت الطلبات والرغبات الإصلاحية على يده أُكلها، وبخاصة في التعليم.

المبحث الأول: دعوات إصلاح التعليم العربي الزيتوني قبل الطاهر بن عاشور

حظي جامع الزيتونة في بداية الدولة الحسينية بالتفاتة الأمراء ورجال العلم، فكان ذلك شأن مؤسس الدولة الأمير"حسين بن علي"، وشأن ثلة من الأمراء من بعده، مثل"الباشا علي الأول", وكان بذلك إعمارٌ ونسخٌ لما سبقه من إهمال وإغفال في عهد الدولة المرادية، وقد تمثلت هذه الإصلاحات في ما يلي:

أولا: دعوات الإصلاح في عهد المشير"أحمد باي" الأول(1253هـ –1837م):

لقد عُنى الشيخ المشير"أحمد باي"الأول بهذا المعهد الذي زوّده بخزائن نفيسة من الكتب، وقّفها على طلبة العلم به،«كما أصدر أمراً عليّاً(1258هـ–1842م) في تنظيم التعليم به، وترتيب دروسه وتعيين هيئة من العلماء في النظارة العلمية المتكونة من شيخ الإسلام وباشا مفتي المالكية، ومن القاضِيَيْن الحنفي والمالكي لمراقبة سير الدراسة والإشراف عليها، وضبط أمر ترتيب تدريس العلوم، وهذا الترتيب مثبّت بالمعلقة الواقعة بجوار باب الشفاء بالجامع، ولئن كان الشيوخ المدرسون يمثلون الطبقة الأولى من جهاز التعليم، فقد أحدث الأمر العلي

الصادر سنة:(1265هـ-1848م) طبقة ثانية لهم .وكان التقدم من هذه الطبقة إلى الأولى مشروطا بالانتساب إلى الثانية، وموكلا لاختيار النظارة.»[1]

ولكن هذا النظام اختل بعد وفاة المشير أحمد باي الأول وقصُر كثير من الشيوخ عن القيام بواجباتهم.

ثانياً: دعوات الإصلاح في عهد المشير"محمد الصادق باي"(1276هـ-1859م/1299هـ-1882م).

أدرك المشير"محمد الصادق باي" الوضع في جامع الزيتونة، وأظهر بإشارة من أعضاده عناية بالزيتونة. وأسس برِواق الجامع سنة 1292هـ مكتبةً سميت بالمكتبة الصادقية نسبة لاسمه، وهي التي اشتُهرت فيما بعدُ بالمكتبة العبدلية، وتولى وزيره"خير الدين باشا" ضبط أحوال الدروس والمدرّسين بالجامع الأعظم، وأسقط ضريبة الجباية عن المنقطعين عن طلب العلم. وقد يكون الدافع لمثل هذه التصرفات محاكاة كبار الملوك والسلاطين في الدول الأخرى أو الرغبة في التقرب من الرعية.

ثالثا: صدمة الاحتلال ويقظة الشعب :

عرفت تونس كغيرها من البلاد العربية والإسلامية موجةً استعماريةً غربية، تمثلت في دخول الاستعمار الفرنسي إليها في جمادى الأولى سنة 1218هـ/الموافق لشهر ماي 1881م وقد اتُبعت فيها السياسة نفسها التي سُلِكت في الجزائر من أجل القضاء على المقومات العربية الإسلامية، «فلما انتصب نظام الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية وتقاطر الأوروبيين وخاصة الفرنسيون منهم على تونس العاصمة، واتخاذهم حيّا متميزاً بها عمراناً ونضارة وبهجة حياة، بدأ الفارق العظيم بين بُؤس الحياة الأهلية، ونعمة الحياة الأوروبية التي لم يستطع اللحاق بها إلا كبار الميسورين وعظماء الحكام، وظهر الأطباء والصيادلة والمهندسون الغربيون بمظاهر تفوقهم في العلوم الطبيعية، وسبْقهم في ميدان الحياة العملية، وفاضت على البلاد الثروات الأجنبية بسعة معاملاتها وقوانينها الغربية المغرية،

[1] محمد الحبيب بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1:شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص: 176/175.

وبدأ نظام الدولة في الإدارة والقضاء يتطور بالاقتباس من الأساليب الغربية، وتُرك ما كان سائداً من الأحكام الشرعية والتقاليد القومية.»[1]

وهنا كانت يقظة الشعب بما فيهم العلماء والحكام، الذين شعروا بضرورة تدارك الأمر، فصرفوا عنايتهم إلى شتى المجالات يرعونها، ويبذلون الجهد لإصلاحها. وكان لجامع الزيتونة نصيب من ذلك فقد أصابه الشلل، وأصبح غير قادرٍ على إنتاج الخريجين لمواكبة التطورات الجديدة التي شملت كل جوانب الحياة، والخروج بالبلاد من التخلف، وتحريرها من أيادي الغزاة. وعلى هذا الأساس كان من الضروري أن يحرّك الإصلاح مشاعر الراشدين، فيزيلون الفساد، ويقضون على أسبابه وعلله.

رابعا: إصلاحات الوزير"خير الدين باشا":

تمثلت إصلاحات"خير الدين" في إنشائه لجنةً لإصلاح التعليم الزيتوني تولى رئاستها بنفسه، وقد ضمت إلى جانبه رئيسا، نخبة من المشايخ والعلماء المصلحين والمجددين الذين كانوا أنصاراً لدعوته من أبرزهم: الشيخ محمد العزيز بوعتور وزير القلم، والشيخ أحمد بن الخوجة المفتي الحنفي، والشيخ محمد الطاهر النيفر القاضي المالكي.

وأصدر بعد ذلك قانوناً لتنظيم التعليم بجامع الزيتونة، جاء في مضمونه خمسة أبواب، تشتمل على سبعةٍ وستين فصلا:[2]

الباب الأول:يُعنى بالدراسات والكتب الواجب دراستها ص 1-2.

الباب الثاني:يضبط واجبات المدرسين، ويحدد حصة الدرس بينهم بساعة ونصف الساعة ص 7-11.

الباب الثالث:ينظم شؤون الطلاب، ويقتضي منهم أن يكونوا مصطَحِبين لدفاتر الشهادات التي يسجل بها

[1] محمد الحبيب بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص: 177/176

[2] المرجع نفسه، ص: 179.

حضورهم الدروس، ونتائج امتحاناتهم وهي الوثيقة المعتد بها لإعفائهم من ضريبة المجبى ومن الخدمة العسكرية ص 12-32. كما يلزمهم النظام بالحزم وحسن السلوك ومراعاة حرمة المعهد.

الباب الرابع:يحدد طرق مراقبة العمل وسير الدروس بالجامع، وأحوال الطلبة وسلوكهم. وقد عهد بذلك إلى هيئة أسسها القانون نهي هيئة النظارة العلمية ص 33-53، وجعل الامتحان سنويا يبدأ في 13يونيو من كل سنة بمقر الحكومة بدار الباي بحضور موظف حكومي.

الباب الخامس:مخصص لشؤون المكتبة وترتيبها وسير العمل بها. ثم صدر بعد هذا الأمر أمر جديد بعد شهر واحد من صدور الأمر الأول. ويمتاز ترتيب"خير الدين" بأنه أكثرَ من عدد العلوم التي تدرس بالجامع الأعظم، وحدّد كيفية ابتداء تعليم التلميذ، والعلوم التي يتلقاها أوّلا، ومراتب التدريس للكتب، وشهادات الحضور، وترتيب التعليم من حفظ وفهم، كما حدّد للدرس حصة زمنية، وللمدرسين صفة تقرير الدرس، وترتيب الدرس من قواعد وشرح وقراءة وتمرين وجعلت طريقة التدريس طريقة الإملاء، وجعل الامتحان لتحصيل شهادة التطويع (نهاية التعليم الثانوي) لمن زاول الدراسة بالجامع المدة المحددة، وشهد لدى الشيوخ بذلك.

المبحث الثاني:إصلاح التعليم العربي الزيتوني في عهد الطاهر بن عاشور.

أولا: آراء الشيخ بن عاشور الإصلاحية :

شغل إصلاح التعليم الزيتوني وما كان عليه جامع الزيتونة أفكار شيخنا محمد الطاهر بن عاشور وتوفرت أسباب ذلك لديه، فعزم على تجسيد رؤيته الإصلاحية على أرض الواقع، وهذا ما نستشفه من قوله: «قد كان حدا بي حادي الآمال. وأملى عليّ ضميري، من عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكير في طرق إصلاح تعليمنا العربي الإسلامي الذي أشعرتني مدة مزاولته معلماً ومتعلماً بوافر حاجته إلى الإصلاح الواسع النطاق،فعقدت عزمي على تحرير كتاب في الدعوة إلى ذلك وبيان أسبابه».[1]

ويرى الشيخ بن عاشور أن إصلاح التعليم عمل لا يتصدى له إلا من تحققت فيه شروط الإصلاح من ذلك : «أن يكون الراغب في الدعوة وفي القيام بإصلاح التعليم مؤهلاً للإطلاع بالعمل الإصلاحي في ميدان التعليم ،ومن أهم شروط هذا التأهل أن يكون ممن أنشأه هذا التعليم نفسه، عارفا بحاجات الزمان،وغايات

[1] محمد الطاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص:7

العلوم،نظاراً إلى الروح لا إلى الجثمان بعيداً عن متابعة السفاسف،خبيراً بما أصاب مزاج التعليم من العلل وبأنواع معالجتها».[1]

وقد كانت للشيخ بن عاشور جهود وآراء إصلاحية بارزة في مضمار إصلاح التعليم العربي عامة، والزيتوني خاصة؛ من ذلك ما ضمّنه كتابه في باب أسباب تأخر التعليم، حيث يعرض فيه علل وأسباب تراجع التعليم الزيتوني، ثم يمضي بعد ذلك في بيان الوسائل المناسبة في الإصلاح من وجهة نظره الخاصة، ومن بين الأسباب التي أشار إليها الشيخ بن عاشور: إهمال ضبط التعليم، حيث إن التعليم يحتاج في ضبطه إلى تحقيق بعض الشروط منها: جعله إلزامياً، فالتعليم بجامع الزيتونة كان اختيارياً، فلا يلتزم الطلبة أو المدرسون بقوانين أو ضوابط محدّدة حين مزاولتهم للتعليم؛ وكذا ضبط أوقات المدرسين؛ وضبط مكان التدريس؛ وتوزيع التلامذة على الدروس المناسبة؛ يقول الشيخ بن عاشور مفصلاً في ذلك: «....فإذا تتبعنا حال التعليم وجدناه اختيارياً في سائر أحواله، فالمتعلم يتعلم باختياره، والمدرس يدرس ما يروق لديه من الكتب، ويقرر ما يختار من المسائل، والمؤلف يصطلح على ما يشاء من العلم، وبذلك كان التعليم في سائر عصوره اختيارياً وغير مضبوط ولا متحد بطريقة واحدة،....ومن المبادئ لضبط التعليم بصفة طردية أربعة أمور: جعله إلزاميا، وضبط أوقات المدرسين، وضبط محل التعليم، وتقسيم التلامذة على العلوم والدروس.»[2]

ومما ذكره الشيخ كذلك في أسباب تأخر التعليم، تفاوت الطلبة الوافدين على الجامع في درجات التحصيل، فمنهم من ينتسب إلى الجامع وقد حصّل على قدرٍ من التعليم قبله، ومنهم من ينتسب إليه من دون ذلك، لذا وجب تنظيم تعليم ابتدائي ينطلق منه الطلبة قبل الالتحاق بالجامع، يقول: "عدم تقارب التلامذة الوافدين إلى التعليم بجامع الزيتونة في الحالة التعليمية التي يفدون وهم عليها؛ لأنهم يردون من جهات شتى مختلفة في حالة التعليم، فمنهم من يرد حافظاً للقرآن وبعض المتون، قادراً على القراءة والكتابة، عارفا بالرسم، بسبب التدرب على الكتابة في مدارس القرآن المتقنة، وقد قرأ مبادئ العربية قبل دخول الجامع، ومنهم من يفد على حالة دون ذلك، ودونها، ومنهم من لا يحسن قراءة ولا كتابة، ولا يحفظ القرآن، ولذلك يكونون متفاوتين تفاوتاً

[1] محمد الحبيب بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص:198

[2] محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص:105

بيّنا في الأهلية لتلقي الدروس، وهذا من أسباب عدم ظهور نتائج متقاربة في متخرّجي الجامع، والواجب لإصلاح هدا الخلل العظيم تنظيم تعليم ابتدائي قبل تعليم الجامع الأعظم."[1]

وفيما يتعلق بتعليم اللغة العربية فقد ذكر الشيخ أن من أسباب تراجعه ضعف الملكات اللسانية، وقصور الألسنة عن التعبير بلغة عربية فصيحة، لذا فإنه من الواجب لإصلاح هذا الجانب،«أن يُعوّد التلامذة النطق بالعربية، بحيث لا يُقبل منهم التكلم مع شيوخهم بغيرها، وتجعل لهم تمرينات أسبوعية في الخطب العربية بمراقبة أساتذة أكفاء لينبهوهم لما يخلون بمراعاته. ويكلّفون بعد ذلك بإنشاء مقالات فصيحة وتعطى لهم أعداد متفاوتة.»[2]

تلك هي بعض من أهم آراء الشيخ بن عاشور الإصلاحية التي مضى لا يثنيه عائق أو مانع تجسيدها على أرض الواقع،«فما إن أسندت إليه قيادة المسيرة العلمية بالزيتونة حتى شمّر عن ساعد الجد، وأخذ في تنفيذ برنامج واسع النطاق. وهذا ماحمل طلاب الجامع وشيوخه على إقامة مهرجان للاحتفاء به بمناسبة مرور سنة على توليته، فكان أشبه بالبيعة الجماعية له.»[3]

ثانيا: حركات إصلاح التعليم في القرن 20/14 في ربوع المشرق والمغرب.

شهد العالم العربي والإسلامي مشرقاً ومغرباً على عهد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حركة إصلاحية شاملة مست جميع مجالات الحياة، ونتيجة لذلك برزت نخبة من دعاة الفكر الإصلاحي سعوا بجد إلى نهضة أمتهم وإصلاح شأنها؛ وقد اتصل الشيخ بن عاشور بثلة من رواد الإصلاح في العالم العربي، كان من أبرزهم الإمام "محمد عبده" مفتي الديار المصرية، وكان له ارتباط متفاوت، إما مباشرة برجال الإصلاح في العالم العربي الإسلامي، وإما بما ذاع عن بعض قرنائه في هذا المجال من آراء واجتهادات وأفكار، لفتت الأنظار إليهم، واقتضت الاتصال بهم أو التعرف عليهم. ومن أبرز رواد الفكر الإصلاحي في العالم العربي:

[1] محمد الطاهر بن عاشور:أليس الصبح بقريب، ص:114

[2] المرجع نفسه، ص:117

[3] محمد الحبيب بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص:301

الأستاذ محمد عبده:[1]

هو الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية، وزعيم الإصلاح بالأزهر الشريف، تأكدت صلة الشيخ بن عاشور به عند زيارته الثانية لتونس في رجب 1321هـ/أوت 1903م، وحصل من التجاوب بينهما ماجعل القادم ينظر إلى العالم الشاب نظرة إعجاب لذكائه، ورجاحة عقله وبعد نظره، وقدرته الفائقة البيانية، وحسن تدبيره وكريم مواهبه، ناعتا إياه بسفير الدعوة في الجامعة الزيتونية وحمل ذلك الشيخ بن عاشور على التنويه بالزائر الكبير، والحفاوة به، والإشادة بمكانته العلمية، وآرائه وأفكاره الإصلاحية ونحن نعلم أن الأستاذ رغم اختياره إصلاح المنهج الثوري الذي أشتهر به، كانت له مبادئ وآراء عمل على نشرها والدعوة إليها ونفع الناس بها. ومجملها في مجال التربية والتعليم مايعرب عنه قوله :« أمر التربية هو كل شي ...وعليه يبنى كل شيء....وكل مفقود يفقد بفقد العلم، وكل موجود يوجد بوجود العلم. وأي إصلاح للشرق والشرقيين لابد أن يستند إلى الدين، حتى يكون سهل القبول، شديد الرسوخ، عميق الجذور في نفوس الناس؛ والناس في التعليم طبقات: العامة، والساسة، والعلماء، ويجب تحديد ما يلزم لكل واحدة من هذه الطبقات الثلاث من التعلّم كمّاً ونوعا

وطريق ذلك في إصلاح التعليم الديني قوله:«يجب تحرير الفكر من قيد التقليد ،وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في نسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.والنظر إلى العقل باعتباره قوة من أفضل القوى الإنسانية،بل هي أفضلها على الحقيقة.»[2]

الشيخ محمد شكري الآلوسي :[3]

يعد الشيخ محمد شكري الآلوسي (1273هـ_1856م)_(1342هـ_1924م)، من كبار علماء العراق ،عاش مناصراً للسلفية ،محاولا الجمع بين النصوص الشرعية والقضايا العلمية المعاصرة كالتي يقوم عليها علم الفلك فإن خالفت هذه النصوص لم يلتفت إليها ،يؤول النصوص لأجلها .وهو لذلك يأخذ بمنهج بن رشد في

[1] ينظر: محمد عمارة: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده،دار الشروق، بيروت (لبنان)،ط:1، 1993م، ج:1، ص: 153.
[2] المرجع نفسه، ص: 181.
[3] محمود شكري الألوسي: ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة، المكتبة الإسلامية، بيروت (لبنان)، ط:2، 1997م،ص: 12.

فصل المقال وتقرير مابين الشريعة والحكمة من الاتصال .وهو يقول بحركة دوران الأرض اليومية والسنوية حول الشمس ،ويعتبر هذه الأخيرة مركز نظامها وأن الأرض إحدى الكواكب السيارة ،وهي سابحة في الجو معلقة بسلاسل الجاذبية ،وقائمة بها كسائر الكواكب لأنها كما ذهب إليه "بطليموس" في الأفلاك كالمسامير في الباب ،إلى غير ذلك من قواعدها المشهورة وقوانينها المذكورة .التي رآها لا تعارض الكتاب والسنة .فالعقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، بل كل منهما يصدق الآخر ويؤيده.

وإضافة إلى هؤلاء العلماء والمصلحين الذين عايشوا فترة شيخنا الطاهر بن عاشور نسلط الضوء على الشيخين والعالمين اللذان لا يذكر أحدهما إلا مقترنا بذكر الآخر وهما:الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الإبراهيمي.

الشيخ عبد الحميد ابن باديس: [1]

هو الشيخ عبد الحميد بن باديس 1308ھ/1889م_1359ھ/1940م ،تخرج بشهادة التطويع من جامع الزيتونة، والتقى في المدينة المنورة بشيخه "الونسي"، والشيخ الإبراهيمي، له تآليف. ومن أعظم ما قام به وواجه به التحديات الاستعمارية إنشاؤه" **لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين** "، وهي مؤسسة عتيدة مازالت آثارها تمتلك نفوس روادها والمنتسبين إلى مدارسها؛ فهي خير ماكان يمثل الدعوة إلى النهضة عن طريق العلم والتربية الأخلاقية، «ويرى إمامها أن الإصلاح يقوم على شقين مترابطين: التعليم من ناحية، ونبذ الجمود والأوضاع الطرقية من ناحية ثانية. وبهذا الاعتبار فإن مناهج بن باديس ومحمد عبده ورشيد رضا،كانت متقاربة جداً إذ يقوم العمل الإصلاحي لديهم على التربية والتعليم؛ فهو مناهض لإبطال الأحكام القطعية الاجتماعية، ولكل ما فيه هدم لروح الدين الإسلامي، وجحود لبعض القرآن معتبراً ذلك فسقا وفجورا.»[2]

[1] ينظر:بن باديس: آثار الشيخ بن باديس، ج:1، ص: 475.

[2] محمد الحبيب بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص: 191.

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:[1]

هو العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي 1306ھ/1889م-1385ھ/1965م.خلف الشيخ بن باديس على رأس جمعية العلماء. وكان نشطا في تكوين المدارس وتحفيظ القرآن، وتعليم العربية. وهو خطيب مفوّه، وراجز بارع. فكان عضواً في المجامع اللغوية العربية بالقاهرة ودمشق وبغداد، أصدر "البصائر" ونشرت مقالته عيون البصائر، وله في مجلة الشهاب مقالات كثيرة. وبحكم تعاونه مع صديقه الإمام الشيخ بن باديس ،وضع المنهج الذي سارت عليه الحركة التعليمية الإسلامية الحرة بالجزائر في ظل جمعية العلماء. ولعلنا نستطيع أن نفهم الكثير من ومضاته الفكرية ولمحاته البيانية في هذا الموضوع. ومن ذلك قوله:« تعتبر التربية والتعليم من أهم القضايا التي تعنى بها الأمم .فبالتربية والتعليم تتقدم الحضارات، وتتطور المجتمعات، وتصنع الأجيال، فالتربية بوجه عام هي ذلك الجهد الذي يقوم به آباء الشعب ومربوه لإنشاء الأجيال على أساس فطرية الحياة التي يؤمنون بها».[2]

ولتأكيد هذا التصور للتربية نجد الشيخ الإبراهيمي يستشهد في هذا المقام بكلام رجال الكفاح من أجل عزة الإسلام. ومن هؤلاء الشيخ علي الندوي الذي يقول:« لقد اتفق علماء التربية في العهد الحاضر على أن التربية في أمة وبلاد ليست بضاعة تصدر للخارج، أو تستورد إلى الداخل كالمصوغات أو المواد الخام والحاجيات والمخترعات التي لاتختص ببلد دون سواه، وإنما هو لباس يفصل على قامة هذه الشعوب وتقاليدها الموروثة وآدابها المفضلة التي تعيش لها وتموت في سبيلها».[3]

---

[1] محمد الحبيب بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص: 192.

[2] مجلة الشهاب: العدد:11، رجب 1349هـ/ديسمبر 1930م: ص714:715

[3] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ الإبراهيمي،عيون البصائر، دار العرب الإسلامي، بيروت(لبنان)، ص: 237.

محمد رشيد رضا:[1]

هو السيد محمد رشيد رضا 1282هـ/1865م-1354هـ/1935م، شامي النسبة من قرية القلمون بطرابلس، زاول المرحلة الأولى من تعليمه بالكتاب، ودخل بعد ذلك إلى المدرسة الرشدية، ثم انتقل إلى المدرسة الوطنية الإسلامية، حيث درس العلوم الشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، وتخرج بها على يد الشيخ محمد الجسر.

وفي هذه المرحلة وقف على أعداد من مجلة العروة الوثقى التي كان لها كبير التأثير في توجهه الإصلاحي، واتصل بعد ذلك بأستاذه وصاحبه محمد عبده، وانتسب إلى مدرسته الإصلاحية. وبعد غياب العروة الوثقى بادر إلى إنشاء مجلة المنار سنة 1316هـ/1898م، لإحياء تعاليم العروة الوثقى، والتعريف بقواعد الوحدة الإسلامية، وبث المضمون السياسي للجامعة الإسلامية عن طريق الإصلاحين الديني والتربوي.

[1] محمد الحبيب بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ص: 86

الفصل الثالث

التعليمية في كتاب "أليس الصبح بقريب."

الفصل الثالث: التعليمية في كتاب أليس الصبح بقريب.

تمهيد:

إن التعليم هو دعامة الأمة وأحد أهم ركائزها التي تنبني عليها حضارتها وتقدمها، فهو سر نهضتها وأساس ازدهارها، فالتعليم عملية أساسية في رقي الحضارة، فهو الميزان الوحيد الذي تقاس به قوة الأمم؛ فالأمة التي تملك العلم هي التي تسيطر،لذلك أصبح التعليم يحظى باهتمام كبير وأصبحت تبذل في سبيله أغلى الأثمان وأنفس الأعمال، ونتيجة لذلك نشأ ما يسمى بعلم التدريس أو الديداكتيك أو ما يصطلح عليه اليوم بالتعليمية.

وإنه مما تقضيه منهجية البحث قبل أن نسبر أغوار هذا المبحث الذي بين أيدينا أن نضع تعريفا عاما للتعليمية حتى نحيط علما بمفهومها الذي أصبح يحتل مكانة بارزة في الأدبيات التربوية خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، وأضحى لها حضور متميز بين علوم التربية.

المبحث الأول: مفهوم التعليمية.

أولا: لغة: «إن كلمة التعليمية في اللغة مصدر صناعي لكلمة "تعليم" المشتقة من علم أي وضع علامة أو سمة من السمات للدلالة على الشيء دون إحضاره ».[1]

ثانياً: اصطلاحا: مصطلح التعليمية مترجم عن الكلمة اليونانية "Didactikos" وتعني فلنتعلم أو ليعلم بعضنا بعضاً، وكلمة "Didasko" وتعني أتعلم، وكلمة "Didasken" وتعني التعليم؛ فهي تحيل على كل ما هو خاص بالتربية والتعليم. وتعرف التعليمية بأنها فن التدريس أو التدريسية، أي أنها تهتم بكل ماله علاقة بفنون وأساليب التدريس الناجحة والفعالة التي تمكن المتعلم أو التلميذ من التحصيل العلمي الجيد.

وأوّل ظهور لهذا المصطلح كان في أوروبا، وذلك نتيجة للتطورات والتغيرات التي مسّت مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية....إلخ.«فمنذ تطور العلوم وتقدم الصناعات أصبح الاهتمام بالنوعية وتحسين المردود صناعيا كان أم تربوياً من اهتمام الباحثين في مختلف المجالات، وتأثر قطاع التربية كغيره من القطاعات

[1] سعدون: مفهوم التعليمية أوالديداكتيك ،نص مترجم ،منتديات لسان العالم، مقال إلكتروني www.ahla montada.com.، التوقيت: الأربعاء 2017/03/29، ص: 1/1

الأخرى بمفاهيم جديدة مسايرة للعصرنة، مع التركيز على الفعالية والعلمية والموضوعية، فأصبح ينظر لقطاع التعليم على أنه مؤسسة للاستثمار وإنتاج العنصر البشري وبدأ الاهتمام ينصب على: كيف نكون تلاميذ فعالين؟ وكيف نطبق ؟أحسن الطرق والوسائل من أجل هذا التلميذ الفعال؟ وكيف نحقق الغايات والأهداف؟».[1]

وكان مصطلح التعليمية في أصله يطلق على ضرب من ضروب الشعر التعليمي الذي يتناول مجموعة من المعارف، يحاول أصحابه من خلاله تيسير العلوم لدارسيها حتى يكونوا قادرين على استيعابها واستظهارها عند الضرورة.

«ويعرف "سميث" التعليمية على أنها: (فرع من فروع التربية موضوعها خلاصة المكونات والعلاقات بين الوضعيات التربوية وموضوعاتها ووسائطها ووسائلها، وكل ذلك في إطار وضعية بيداغوجية)، ويعرفها "ميالا ري" بأنها:(مجموعة طرق وأساليب وتقنيات التعلم)، أما "بروسو"فيرى أن الموضوع الأساسي للتعليمية هو(دراسة الشروط اللازم توفرها في الوضعيات أو المشكلات التي تقترح للتلميذ قصد السماح له بإظهار الكيفية التي يشغل بها تصوراته المثالية، أو يرفضها حيث يقرر؛ إن التعليمية هي تنظيم تعلم الآخرين). ويعرفها من وجهة نظر أخرى بقوله: (هي الدراسة العلمية لتنظيم وضعيات التعلم التي يتدرج فيها الطالب لبلوغ أهداف معرفية عقلية، أو وجدانية، أو نفس/حركية».[2]

فالتعليمية علم حديث النشأة يهتم بتنظيم العملية التعليمية وضبطها وتعديلها، وبالوسائل والطرق الفعالة في التدريس، فالموضوع الأساسي للديداكتيك :« هو بالضبط دراسة الظروف المحيطة بمواقف التعلم ومختلف الشروط التي توضع أمام التلميذ لتسهيل ظهور التمثلات لديه وتوظيفها، أو إبعادها أووضعها موضع تغيير ومراجعة لخلق تصورات وتمثلات جديدة».[3]

---

[1] نوال،مفاهيم التعليمية، منتديات لسان العالم،مقال إلكتروني، www.Ahlamontada.comالتوقيت:السبت 2017/03/29، الساعة 11.51،ص1/1

2 زبيدة بكاي :تعليمية النحو العربي في المدرسة الجزائرية "السنة الأولى متوسط أنموذجا"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في تعليمية اللغة العربية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان ،2008/2007، ص 2،3

[3] محمد الدريج: مدخل إلى علم التدريس.تحليل العملية التعليمية، د.ط، قصر الكتاب، البليدة سنة2000،ص14

وقد استعمل مصطلح التعليمية للدلالة على فن التعليم «عام 1613؛ في بحث لكشوف "**هيلفش**"و"**راتيش**" بعنوان:"**تقرير مختصر في الديداكتيكا عند راتيش** "، ثم في عام 1657 في كتاب :"**أجان أموس كومنروس" بعنوان: "الديداكتيكا الكبرى**"».[1]

المبحث الثاني: تجلّيات التعليمية في كتاب "أليس الصبح بقريب".

التعليمية هي فن التدريس، أي أنها تحيل على كل ما له صلة بأفانين التدريس؛ وقد أشار الشيخ بن عاشور في كتابه إلى بعض الفنون والأساليب التعليمية الهامة التي وجب أن تكون معلومة لدى كل مريدي التدريس، وهذه الفنون والأساليب التي ذكرها شيخنا إنما هي من صميم ما ينادي به دعاة التعليمية الحديثة، وهي دليل فطنته ونباهته واطلاعه الواسع على أفانين التدريس.

وقد ضمّن الشيخ بن عاشور كتابه ببعض الموضوعات المتعلقة بمجال التعليمية الحديثة فيما يخص جانب المعلم والمتعلم والمادة التعليمية، وهي الأركان الأساسية في عملية التعليم؛ فمن تجليات التعليمية عند الطاهر بن عاشور فيما له علاقة بفنون وأساليب التدريس الواجب توفرها عند المعلم، ما ذكره حول أهمية ترغيب التعليم لطالبيه وتحبيبه لهم. وذلك من خلال الترغيب في المنافع الشخصية التي يحققها طالب العلم من مزاولته للتعليم، فيتخذها المعلم منطلقاً للوصول إلى تحقيق الرغبة فيما ينفع الأمة ويفيد الصالح العام وترسيخها في نفوس المتعلمين.

وفي هذا يقول الشيخ ابن عاشور مفصلاً في ذلك: «...من واجب كل داع إلى التعليم أن يوضح لطالبيه الغايات التي يحصلونها من مزاولة ذلك التعليم سواء أكانت غاية دنيوية أو أخروية لأن لكلتا الغايتين طلاباً، فتلك الغاية التي يجتني منها المحصل في نهاية ذلك التعليم نفعاً لنفسه دنيوياً أو أخروياً، ووراء هاتين غاية هي أسمى وأعظم مما يبدوا منها، وهي إنتاج قادة للأمة في دينها ودنياها،...ولكن هاته الغاية أمر حاصل لا محالة، وقد لا تكون مقصودة للمتعلمين ولا لأوليائهم ولكنهم يشهّرون بها عند ظهور النوابغ بين المحصلين؛ وهي غاية مقصودة لمرشدي الأمم من رسل وحكماء ومرشدين ناصحين، وإذ قد كانت حاصلة لا محالة وكانت الرغبة فيها في بدأ التلقي ضئيلة، وجب أن تحجب وراء ستار الترغيب في المنافع الشخصية، حتى إذا استهوت الرغبة في المنفعة

[1] سعدون :مفهوم التعليمية أو الديداكتيك، ص 1/1

الشخصية قلوب الطالبين للعلوم وعُلّق بها الشغف بالمعرفة، وارتقى المرتقي منهم إلى درجة النبوغ، أصبح النابغ لا يبغي بحالته بدلا، وصرف همته إلى نفع أمته علماً وعملاً.»[1]

فطلبة العلم إنما يزاولون تعليمهم لتحقيق منافعهم ورغباتهم الشخصية التي تدفعهم إلى ذلك، وهي تختلف من طالب لآخر، فمنهم من يطلب العلم ليصير معلماً قائما بشؤون التعليم، ومنهم من يطلبه ليصير إماماً أو خطيباً. ومنهم من تجده يزاول علوم الطب والتمريض رغبة في أن يمكنه ما يحصله من التعليم من أن يصير طبيباً، فتلك كلها رغبات شخصية وجب أن لا ندحضها أو نكبتها في نفوس المتعلمين، بل ننميها ونحببها إليهم، حتى إذا ارتقى المتعلم إلى درجة النبوغ في العلم أدرك أن حاجته الشخصية التي يبغي بها نفع نفسه إنما هي من حاجة أمته، فصرف همته إلى نفع أمته بما اكتسبه من العلم.

وعلى هذا الأساس نجد الشيخ بن عاشور يؤكد من ناحية أخرى على وجوب مراعاة رغبات المتعلمين أثناء تعليمهم، فعلى المعلم أن يسير في تعليم تلامذته مسار عواطفهم، وأن لا يلزمهم بالتعلم وفق رغبة نفسه أو مسار عواطفه؛ فيصرح قائلاً: «...إن على المعلم أن يميل في تعليم التلامذة أميال عواطفهم ولا يسوقهم إلى رغبته، لأن وصولهم إلى رغبتهم أسهل عليهم من الوصول إلى ما يحب المعلم أو قانون المدرسة»[2]؛ وهذا الذي ذكره شيخنا بن عاشور إنما هو فن من فنون التعليم أثبت نجاعته في حقول التربية والتعليم الحديثة، وهو مبدأ من المبادئ المثبتة في مجال التعليمية.

ويحقق الشيخ بن عاشور ملمحا آخر من ملامح التعليمية حينما يذكر بعض المؤاخذات التي يؤاخذ عليها المعلّمون، من بينها انتقاده المدرّسين الذين يطيلون التفصيل في بعض مسائل العلوم الخلافية ويكثرون التعمق في أسبابها وعللها وتفريعاتها من غير ما مراعاة مدى تحقق فهمها عند التلميذ، فيبتعدون بذلك عن تحقيق الغاية التي ترجى من التعليم وهي توسيع فكر المتعلم وتنميته في أقل وقتٍ وأوجزه؛ يقول: «أما الحال في التدريس فإنه أبعد عن الإيصال إلى الغاية المطلوبة وهي سعة الفكر في وجيز الوقت سواء في المرتبة الابتدائية أو النهائية، فما تجد في الابتداء إلا هجوم المدرّسين على المسائل التي يسمع التلميذ دويّها ولا يفهم المراد منها، وتجعل في نفسه إما اليأس من فهم العلم، أو اعتياد القناعة بما لا يفهم، . وما هو عند دخوله إلا أن يسمع الخلاف في متعلق الجار في(بسم

[1] محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص: 09

[2] المرجع نفسه، ص:200

الله الرحمان الرحيم)، وأوجه الإعراب البالغة بالضرب نيّفاً وسبعين.»[1] فينبغي على المدرّس أن يركز في درسه على المسائل العامة المتفق عليها ويتجنب إفراط الحديث عن المسائل التي يقع فيها خلاف أو التي يكثر تشعبها وتفرّعها، لأن ذلك يُحدث خلْطاً عند التلميذ وقد يعسر عليه فهمها وإدراكها. وسبب تطويل المدرّسين دروسهم بالأمور الخلافية معلوم، وذلك«لأنهم اعتادوا من نشأتهم التسليم بما يقول المؤلِّفون فلا همَّ لهم إلاّ التقاط كلماتهم من غير تعوّدٍ بالفصل في ذلك بين صحيح ومجروح، ولا باعتبار ما ينبغي إلقاؤه للتلامذة وما لا ينبغي فيضطر المدرّس إلى التطويل بذكر كل ما طالعه، لأنه إن لم يذكره جاء درسه قصيراً مع مطالعة طويلة، ثم هم يحاربون الهمم على تغيير هاته الطريقة خشية أن يصبحوا ساكتين في دروسهم.»[2]

ومما آخذه الشيخ ابن عاشور كذلك على المدرسين، توظيفهم لطريقة الإلقاء أو الإملاء- التي شاع استعمالها في أطوار التعليم الحديث- توظيفاً سلبياً، حيث يتخذها بعض المدرسين مطيّة ليملؤا بها أوقات الفراغ حين إلقائهم دروسهم، وذلك«أنها تُلجئ المدرس إلى التملّي من أقوال المؤلفين ونقل عباراتهم لئلاّ يكون درسه مختلاً، وبذلك يضيّع وقته في القشر دون اللباب، وتلجئه أيضا إلى تحامي تلقي أسئلة تلاميذه كي لا تتشتّت عليه، وإلى تعطيل الدرس متى ألهاه شاغل أو انحراف مزاج في ليلته، حيث لم يطالع للدرس ما يمليه به، وهذا كله مُشاهَدٌ عند كثير من المدرسين قديما وحديثاً، إنما تَحسُن طريقة النقل عند من لا يتكلّفها بل يأتي بها عفواً، أو يتكلّفها أول الامر تكلّفاً خفيفاً حتى يعتادها، وذلك رجلٌ فصيح اللسان قوي الفكرة ممرَّسٌ بالألفاظ العلمية والأساليب العربية.»[3] فطريقة النقل أو الإلقاء هي طريقة ناجعة لو أحسن المدرّسون استعمالها فيما يخدم صالح المتعلم، ومن ذلك أن يراعي المعلم مراتب المتعلمين ومدى استعدادهم لتلقي العلوم والمعارف، وكذلك حصول فهمها واستيعابها، «وما كانت تسلك هاته الطريقة الحسنة بصفة مهملة فتتعرض لنقد الناقدين لولا إهمال الأساتذة المدرسين العناية بمعرفة مراتب الأفكار واستعدادها لقَبول ما يُلقى إليها، وتلك المعرفة هي أخص أوصاف المعلم.»[4]

[1] محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب ، ص:200
[2] المرجع نفسه، ص:201/200
[3] المرجع نفسه، ص: 201
[4] المرجع نفسه، ص: 201

وقد أتى شيخنا محمد الطاهر بن عاشور على ذكر بعضٍ من الصفات الواجب توفرها في المعلم حتى تتحقق لديه أهلية التصدي للتعليم؛ من ذلك أن يكون المعلم متمرّسا ومطلعا على فنون وأساليب التدريس التي تمكنه من نقل ما اكتسبه من معارف وعلوم إلى تلامذته على النحو الذي يتحقق به الفهم لديهم؛ ومن ذلك

أيضاً أن يكون المعلم قادراً على استجلاب انتباه تلامذته وتحسيسهم بأهمية الدرس وخاصة عند ابتدائه، ومما ذكره الشيخ في هذا الشأن أن يبتدأ المعلّم درسه بالمعلوم لينتقل بعد ذاك إلى المجهول، حتى يتصل الدرس السابق باللاحق، وهذا ما من شأنه أن يُمكّن المعلم من الاطلاع على درجات التحصيل التي وصل إليها تلامذته؛ ومن صفات المعلم كذلك أن يكون وسطاً بين التكلّف والتساهل ، فالتكلّف والانقباض والشدة وعبوس الوجه كلها تباعد ما بين التلميذ ومعلّمه، وبذلك تكون علاقة المعلم بتلامذته مخلخلةً ومضطربة، وكذا ضدُّ ذلك من التساهل المفرط ورثاثة الهيئة واضطراب الحركات وسخافة الحديث.

ويصنف الشيخ بن عاشور مراتب المدرسين إلى خمسة أصناف:

الأول: النِّحْرير الذي يميز الصحيح من الفاسد بنقدٍ وفهمٍ مصيب.

الثاني: المتمرّن بكتب التدريس، الواقف على اصطلاحاتها، المقتدر على تدريس المهم منها بالفهم والإفهام على ما هي عليه من غير خطإ.

الثالث: نَقَلَةٌ لما في الكتب مُكِدّون لحوافظهم عند التدريس وليسوا من النقد أو التحرير في شيء، ينقلون ما يحتطبونه بالليل على غرّة ليأتو به صباحاً،...وهؤلاء أتعب خلق الله عيشاً وأقلّهم تدريساً، لأن اعتيادهم بأن لا يقرّروا إلا ما طالعوا يُكلفهم نصب السهر والنقل، ويمنع من التدريس أقل مانع يعوقهم عن المطالعة في الليل.

الرابع: أُناس يفهمون ويدرّسون ولكنهم لا يميزون في ذلك الصحيح من الفاسد.

الخامس: طائفة كثيرة دأبها صراح الخطأ، وزَلَق الخطأ، والستر على العيب بغطاء.[1]

وتلك هي بعض من ملامح التجلي التعليمي عند الشيخ الطاهر بن عاشور فيما له صلة بالمعلّم، أما فيما يخص جانب المتعلم- وهو الركن الثاني من أركان العملية التعليمية التعلّمية- فقد أشار الشيخ إلى بعض

[1] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص: 203

الموضوعات المهمة التي تساعد في التنشئة التربوية والعلمية للمتعلّمين؛ من بينها ما ذكره حول ضرورة المراقبة الدائمة لمستويات النمو المعرفي عند التلامذة وذلك من خلال تقسيم المسار التعلُّمي إلى درجات، بحيث لا ينتقل

المتعلم من الدرجة التي هو فيها إلى درجة أعلى إلا بعد أن يتحقق ضبطه ضبطاً كاملاً لجميع المعارف والعلوم التي تلقاها، وهذا أمر ضروري لا تجب الغفلة عنه، وذلك«لأن نفوس الأحداث تتطلع إلى السطحيات والصور المزخرفة، وربما أسرعت بهم خفة الشباب إلى التنقل في درجات التعليم خبَباً إلى الغايات قبل التأهل لإدراكها، مع أن المرور على جميع أطوار النمو العلمي أمر لازم لتأهل التلميذ إلى المرتبة التي يوضع فيها، فوجب لصيانتهم من هذه الغلطة العظيمة تقسيم برنامج التعليم إلى سنوات وأن لا ينتقل أحد من الدرجة التي هو فيها إلى ما فوقها إلا بعد إجراء امتحان عليه، ويُتحقق أنه قد تأهّل إلى الدرجة التي يراد نقلته إليها.»[1]

وفي سياق النمو المعرفي والتحصيل العلمي للتلميذ، يرى الشيخ بن عاشور أن التلميذ المبتدِأ يتميز بقوة الحافظة وصفاء الذهن، لذلك وجب مراعاة هذا الجانب من خلال الاعتناء بالحفظ والاستحضار في المرتبة الابتدائية حتى يتعود التلميذ على حفظ المسائل التي تعترضه فيسهل عليه بذلك فهمها؛ يقول الشيخ:«ولما كان عبء استحضار المسائل شاقاً، وكان ذهن المبتدي أسعد به من ذهن المتوسط والمنتهي، لزم الاعتناء بالاستحضار في المرتبة الابتدائية؛ لأن الحوافظ إذا لم تعود بالعمل تضاءلت قوتها، والبعد عن الاستحضار يحول بين العالم وبين الإفادة عن عروض الحاجات في التقرير، لأن اللسان إنما ينطق بما اعتاده من مصطلحات العلوم.»[2]

ويحقق شيخنا الإمام بن عاشور ملمحاً تعليمياً آخر حينما ذكر أنه من أسباب تراجع التعليم غياب التطبيق والتجسيد الفعلي لما يتلقاه التلميذ من معارف وعلوم على أرض الواقع، فحريٌّ بالمتعلم أن يجسد ما اكتسبه من معارف فعلياً في واقعه المعاش، فينتقل بذلك من التنظير إلى التطبيق، وهذا ما نجده مغيباً عند كثير من المتعلّمين، فمن أسباب تأخر التعليم كما يقول الشيخ: «إهمال التمرين والعمل بالمعلومات كما هو الغاية من كل علم؛ ولهذا نرى بالجامع بتونس وفي كثيرٍ من بلاد الإسلام علوماً تُدْرس وكتباً تُختم، ولا نرى فيمن نحادث أو نجالس فصيح لسان أو بليغ بيان...يقرأ الناس علم البلاغة، وعلم الأصول، وعلم النحو، فلا نرى من يتجنب اللحن في قوله ودرسه، ولا من يشعر بالمقاصد البلاغية فينطق بها أو يفهمها، ولا من يرجح في مسائل الخلاف.

[1] محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب ص: 107

[2] المرجع نفسه، ص: 111

وما سبب ذلك إلا أنهم حصّلوا ألفاظاً متحجرة اصطلحوا أن يسموها علماً وهم يدرسونها وما يشعرون بعنوانها وغايتها والقصد منها.»[1] فإهمال التمرين أو التطبيق يعود بالضرر على ملكات التلامذة المعرفية ويؤثر تأثيراً سلبياً على تحصيلهم العلمي، وهذا ما يؤدي بهم إلى عدم فهم ما يحصلونه من العلم؛ يقول الشيخ: «ونسبة النباهة والتحصيل في التلامذة قليلة بسبب إهمال التمرين وترك مراجعة ما يقرؤونه قبل الدرس وبعده، وترك مطالبتهم باستذكار ما تعلموه...»[2]

وفي رؤية تعليمية تربوية أخرى هاهو شيخنا بن عاشور يؤكد على ضرورة أن يسمُوَ المتعلم بفكره إلى درجات الكمال العلمي الذاتي، فهو الهدف الأسمى الذي يجب على المتعلم أن يضعه نصب عينيه، وإنما كان من أسباب تأخر تعليمنا العربي- حسب الشيخ- «تفكير التلامذة منذ الابتداء في الاستعجال لتحصيل الشهادة من غير تفكير في الأهم من ذلك وهو الكمال العلمي؛ وهذا بسبب ما تُحشى به عقولهم من أحاديث القاصرين من أوليائهم وقُرنائهم المرغّبة في الوظائف الدولية، وبسبب عرو تعليمهم عن التنويه بقيمة الكمال الذاتي...»[3]

ومن تجليات التعليمية عند الشيخ الطاهر بن عاشور، ما ذكره في كتابه مما له علاقة بالمادة التعليمية أو المحتوى، وهي العنصر الثالث من عناصر عملية التعليم والتعلّم، ويسميها الشيخ بن عاشور العلوم أو الفنون، وهي التي يحصل في الغالب تدريسها داخل حجرات الدراسة، حيث أشار شيخنا إلى جملة من الشروط اللازم تحققها في المادة التعليمية، من أهمها مناسبة تلك المادة لقدْرات التلميذ العقلية والفكرية، فمن الضرر أن ندرّس تلامذتنا شيئاً يعسر عليهم فهمه وإدراكه، وذلك لأنه لا يناسب سنّهم، وهذا ما نبّه إليه الشيخ الطاهر بن عاشور حينما قال: «ويلتحق بهذا الخلل أيضاً الخلل في تعيين العلوم والكتب لتلامذة قسم من أقسام التعليم، فإنك تجدهم يكلّفون التلامذة المبتدئين في السنة الأولى بدرس فن المنطق، وبتلقي البراهين الكلامية عند تدريس المرشد المعين، وتجدهم يُلقون على تلامذة السنة الثانية الابتدائية في كتاب"قطر الندا"لابن هشام مسائل هي من عويصات مسائل النحو ملأ بها بن هشام كتابه.»[4]

---

[1] محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص: 113/112

[2] المرجع نفسه، ص: 137

[3] المرجع نفسه، ص: 117

[4] المرجع نفسه، ص: 112

ويقول أيضاً: «...نرى في أوائل بعض الكتب التي تدرّس في الابتدائية عندنا مسائل تتوقف كثيراً على غيرها، ولا قبل للتلميذ بفهمها إلا بعناء، ونجد هذا حتى في أصغر الكتب الابتدائية، مثل شرح الشيخ خالد على"الأجرومية".»[1]

ومن بين أهم شروط المادة التعليمية التي ذكرها الشيخ الطاهر بن عاشور في كتابه ما يتعلق بمنفعتها، أي أن تكون المادة التعليمية نافعة للمتعلم لا ضارة له، فمن العلم ما يعود بالضرر على صاحبه، كتعاليم الزهد الغالي، وتعليم الحيل والمغالطات ومساوئ الأخلاق، وتعاليم السحر والشعوذة وغيرها من العلوم الفاسدة؛ ومن شروطها كذلك أن تكتسي أهمية كبرى في التعليم، وأن يكون العلم الذي يراد تعليمه ذا أولوية مقارنة بغيره من العلوم، لذلك يرى الشيخ بن عاشور أنه من أسباب تأخر التعليم «وجود مسائل لا حاجة إليها يُطال بها التعليم، وتُتوهم في صورة العلم وما هي منه. وإهمال مسائل وعلوم مهمة. أو قل- إن شئت- هما الزيادة والنقصان.»[2]

ولعله من ضروريات العلوم المدرسية التي ذكرها الشيخ في غير ما موضع من كتابه، أن تكون المادة التعليمية بسيطة في لغتها بعيدة عن التعقيد والغموض حتى يسهل على التلامذة فهمها وإدراكها في وجيز من الزمن.

[1] محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص:150

[2] المرجع نفسه، ص: 154/153

خـــاتمـــة

خاتمـــة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبقدرته تُحبس النازلات...أما بعد: فإنه ما كان ابتداء عملٍ إلا وأعقبه انتهاء، وبعد أن منَّ الله علينا بإتمام هذا البحث الذي نرجو أن يكون نافعا، ونرجو أن نكون قد أمطنا اللثام فيه عن ما خفي من شخصية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وكتابه"أليس الصبح بقريب"–الذي كان محل الدراسة– بما يتحقق به الوضوح والبيان لكل من يريد التنور بتاريخ هذا العالم الكبير، وأفكاره التعليمية التربوية، وآراءه الإصلاحية التي ضمنها في كتابه؛ ونرجو أن يتحقق به العلم والمعرفة لكل من أراد الاطلاع على تاريخ جامع الزيتونة العتيق وعلمائه. وقد كان مما ليس منه بد ونحن في نهاية هذا البحث الإشارة إلى أهم النتائج التي تم التوصل إليها وتسجيلها، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

–لقد كان جامع الزيتونة منارة علمية وأحد أهم الأقطاب الدينية وأشهرها في العالم العربي والإسلامي، فلم يكن المعمار وجماليته الاستثناء الوحيد الذي تمتع به جامع الزيتونة، بل شكل دوره الحضاري و العلمي الريادة في العالم العربي والإسلامي، إذ اتخذ مفهوم الجامعة الإسلامية منذ المراحل الأولى من نشأته، وعرف بصفته معهداً علميا يستقطب طلبة العلم من شتى أنحاء المغرب والمشرق العربيين، وعرف بمكانته كمركز للتعليم الذي اشتُهر بين الناس بالتعليم الزيتوني، وقد لعب الجامع دوراً طليعاً في نشر الثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب.

–أول ما ابتدأ التعليم في جامع الزيتونة كان في شكل غير منظم، وكان يتسم بطابع العفوية في إلقاء الدروس وعقد الحلق، ولم يكن يحكمه قانون أو نظام؛ ومع تعاقب الأزمنة وتوالى الحقب طرأت على التعليم الزيتوني جملة من الإصلاحات في مختلف الفترات نقلته من تطور إلى تطور ومن حسن إلى أحسن، وكان ذلك على رغم النكسات والنكبات التي شهدها جامع الزيتونة والمرتبطة أساساً بجوانب سياسية وأخرى اقتصادية مست العالم العربي والإسلامي.

– تخرج من جامع الزيتونة منذ نشأته نخبة من كبار العلماء والمفكرين في شتى نواحي العلم والمعرفة، سخروا حياتهم في سبيل نهضة أمتهم، وقيادتها وإرشادها، ونفض غبار الجهل والخمول عنها، وذلك في وقت اضطربت فيه معالم الحياة وتراجعت فيه الأمة العربية والإسلامية؛ وكان من أبرزهم وأشهرهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رائد الفكر الإصلاحي.

– نشأ الشيخ بن عاشور في مناخ يتسم بظهور الحركات الإصلاحية في العالم العربي بصفة عامة وفي تونس بصفة خاصة، لذلك فإن اكتسابه لموقع الريادة في الفكر العربي الإصلاحي ليس غريبا عنه، فالبيئة التي نشأ فيها كانت

دافعا قويا يساعد فكره الوقاد وملكته النقدية على البحث في سبل الإصلاح، وقد عاصر شيخنا نخبةً من أهم رواد الحركة الإصلاحية في المشرق والمغرب العربي، من بينهم: الشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي. وقد كانوا مؤثرين على المستوى الفكري والثقافي وتطابقت رؤاهم الإصلاحية مع رؤية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

- أدرك الشيخ بن عاشور أن نهضة الأمم وصحوتها مرهونة بالعلم، وبالتعليم تبلغ الأمم أعلى الدرجات، فكان تركيزه على النهوض بالعلم وتوسيع مجالاته، وعمل على إصلاح التعليم الزيتوني وتجسيد أفكاره الإصلاحية تجسيداً واقعياً، وهذا ما نلحظه من خلال إقباله على تدوين مؤلفه"أليس الصبح بقريب"، فكان كتابا ينبني على فكر إصلاحي رائد، يجعل من اكتساب العلم وإعمال العقل مرتكزات للتقدم والتطور.

- أشار الشيخ بن عاشور في كتابه إلى بعض الموضوعات المتعلقة بمجال التعليمية الحديثة أو الديداكتيك، سواء ما تعلق منها بأركان التعليم: المعلم والمتعلم والمادة التعليمية، أو ما اختص منها بالنظام والبرامج والأساليب والعلوم والتأليف.

- حارب ابن عاشور الطرق التقليدية العقيمة القائمة فقط على العملية التلقينية وحشو الدماغ دون تحضير الطلاب على ملكة التحصيل.

- لقد كان إصلاح التعليم الزيتوني بالنسبة للشيخ الطاهر بن عاشور هو أهم القضايا التي يجب معالجتها وحلها، من حيث النظم والبرامج وأساليب التدريس، فكان من بين آرائه الإصلاحية المتعلقة بهذا الشأن:

1- ضرورة ضبط التعليم بجعله إلزاميا، مع ضبط أوقاته ومكانه.

2- الاهتمام بالتمارين والعمل بالمعلومات.

3- معالجة ضعف التلاميذ في اللغة العربية، وذلك بأن تُجعل لهم تمرينات أسبوعية للنطق بالعربية، ويمنع عليهم الحديث مع شيوخهم بغيرها.

4- أن يلم المعلم بصناعة التدريس، حتى يستطيع التلميذ فهم الدروس التي تُلقى عليه، ويجب على المعلم أن يكون قدوة لتلاميذه.

-أدرك الشيخ بن عاشور أن صلاح التعليم لا يكون إلا بصلاح القائمين عليه، لذلك نجده يؤكد على ضرورة تحقق أهلية التصدي للتعليم، وينبه على ضرورة اختيار المعلمين الأكفاء القادرين على حمل لواء التعليم وتبصير العقول والمدارك.

- الإصلاح التعليمي حسب صاحبنا يجب أن ينطلق من إصلاح العلوم ذاتها، على اعتبار أن المعلم مهما بلغ به الجمود فلا يمكنه أن يحول دون فهم ما في التأليف من علوم.

هذا وبالله تعالى التوفيق وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى أله وأصحابه الطيبين الطاهرين **والحمد لله رب العالمين** .

مسرد

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

-ابن باديس:آثار بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير،دار الثقافة الجزائر، دط ،2007،ج1.

-أحمد بن أبي الضياف:إتحاف أهل الزمان في إخبار ملوك تونس وعهد الأمان،الدار العربية للكتاب تونس،ت: لجنة من وزارة الثقافة التونسية:ج4/المجلد:2

-أحمد الدريج: مدخل إلى علم التدريس.تحليل العملية التعليمية، د.ط، قصر الكتاب، البليدة سنة2000.

-البشير بن الحاج عثمان الشريف، أضواء على تاريخ تونس الحديث، دار بوسلامة للنشر والطباعة والتوزيع، تونس ط:1.

- جلال الدين السيوطي:الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط.

-شمس الدين محمد الذهبي :تهذيب سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان،ط1412،1/1991م تحقيق: شعيب الأرنوط، ج1.

-محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ الإبراهيمي،عيون البصائر.دار العرب الإسلامي،1998،ج1

-محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني(بن أبي دينار): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط:1، 1286هـ.

-محمد بن إدريس الشافعي: ديوان الإمام الشافعي، تح:عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة بيروت لبنان،ط:3، 1426هـ/2005م.

-محمد بن الخوجة: محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، ج1:شيخ الإسلام الإمام الأكبر

-محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة(مصر)، 1350هـ.ج:2

-محمد بوذينة:مشاهير التونسيين، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس،ط1 :.1987.

-محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ج 20: تونس وجامع الزيتونة، دار النوادر، سورية=لبنان=الكويت، ط:1، 1431هـ/2010م.

-محمود شكري الألوسي ، ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة، المكتبة الإسلامية، بيروت لبنان، ط2 1997م.

-محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (قطر)، دط.

-محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار سحنون للنشر والتوزيع، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، (القاهرة)، 2006م/1427هـ، ط1.

-محمد الطاهر بن عاشور:التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس 1984 ج12.

-محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده،دار الشروق، بيروت لبنان،ط1 1993م.

-محمدالفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية ، تونس، د.ط. -

-محمد الفاضل بن عاشور:تراجم الأعلام، الدار التونسية تونس.

-محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت (لبنان).

-محمد النيفر: عنوان الأريب مما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، دط.

-محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج:2، ت: علي الزواري ومحمد محفوظ؛ دار الغرب الإسلامي،بيروت (لبنان)، ط:1(1988).

-نزار قازان: سلاطين بني عثمان، دار الفكر اللبناني، بيروت(لبنان)، دط.

المجلات والملتقيات: .

-البوطي:كتاب مقاصد الشريعة للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور- ملتقى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور 14، 1985/12/16 الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، تونس.

-المجلة الزيتونية، ج10، سنة 1936

-مجلة الشهاب:العدد11 ،رجب 1349/ديسمبر1930م.

-مجلة الهداية الإسلامية، ج:5، سنة1351 هـ.

-منير الكمنتر بن الكيلاني، الجامع الأعظم الزيتونة في القرن الرابع عشر الهجري، الدار التونسية للنشر والتوزيع، (تونس)، د.ط، ص:319

الرسائل الجامعية:

-حجيبة شيدخ : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مذهبه وآرؤه العقدية ،بحث مقدم لنيل شهادة الماجيستير، جامعة الأمير عبد القادرللعلوم الإسلامية،قسنطينة ،السنة الجامعية 1415هـ/1995م.

-زبيدة بكاي :تعليمية النحو العربي في المدرسة الجزائرية "السنة الأولى متوسط أنموذجا"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في تعليمية اللغة العربية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان ،2008/2007.

ويبوغرافيا البحث:

-سعدون، مفهوم التعليمية أوالديداكتيك ،نص مترجم ،منتديات لسان العالم، مقال إلكتروني www.ahla montada.com.، التوقيت: الأربعاء 2017/03/29

-محمد الباجي بن مامي، التعليم بجامع الزيتونة وبمدارس العلم في العهد الحفصي، المعهد الوطني للتراث، (تونس)، مقال إلكتروني.

-محمد الباجي بن مامي، جامع الزيتونة أهم معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية، المعهد الوطني للتراث،(تونس)، مقال إلكتروني.

-مصطفى عاشور:ملتقى أهل الحديث، منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين، www.ahlhadeeth.com التوقيت: الخميس 13 ابريل2017 ،الساعة: 15:00

–نوال،مفاهيم التعليمية، منتديات لسان العالم،مقال إلكتروني، www.Ahlamontada.comالتوقيت: 2017/03/29، الساعة 11.51 .

الفهـــــرس

فهرس الموضوعات:

الإهداء.

شكر وعرفان.

مقدمة.....أ – ج

مدخل: ترجمة الشيخ الطاهر بن عاشور.....5_12

مولده.....05

نشأته وتعليمه.....05

أهم شيوخه.....07

مؤلفاته.....09

موقفه من النظام البورقيبي.....11

وفاته.....11

الفصل الأول:التعليم الزيتوني قبل الطاهر بن عاشور وأيامه .....14 -27

المبحث الأول:التعليم الزيتوني قبل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.....15

أولا:تأسيس جامع الزيتونة.....16

ثانيا:التعليم الزيتوني في مراحله الأولى.....17

ثالثاً:التعليم الزيتوني في مرحلة الإصلاح.....20

المبحث الثاني:التعليم الزيتوني أيام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.....23

أولاً:عصره من الجانب السياسي.....24

ثانياً:حال التعليم الزيتوني.....25

الفصل الثاني:إصلاح التعليم الزيتوني.....29

تمهيد.....29

المبحث الأول:دعوات إصلاح التعليم العربي الزيتوني قبل الطاهر بن عاشور.....29

أولاً:دعوات الإصلاح في عهد المشير "أحمد باي الأول".....29

ثانياً:دعوات الإصلاح في عهد المشير "محمد الصادق".....30

ثالثاً:صدمة الاحتلال ويقظة الشعب.....30

رابعاً:إصلاحات خير الدين باشا.....31

المبحث الثاني:إصلاح التعليم العربي الزيتوني في عهد الطاهر بن عاشور.....32

أولاً:آراء الشيخ بن عاشور الإصلاحية.....32

ثانياً:حركات إصلاح التعليم في القرن 20/14 في ربوع المشرق والمغرب.....34

الفصل الثالث: التعليمية في كتاب أليس الصبح بقريب.....40.

تمهيد:.....40

المبحث الأول: مفهوم التعليمية.....40

أولا: لغة.....40

ثانياً: اصطلاحا:.....40

المبحث الثاني: تجلّيات التعليمية في كتاب "أليس الصبح بقريب".....42

خاتمة.....50

قائمة المصادر والمراجع.....54

فهرس الموضوعات..... 58